

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب السادس والأربعون

الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

اهداءات ٢٠٠٣
أسرة /عبد الرزاق باشا السنهورى
القاهرة



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب السادس والأربعون

الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٨

* (فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾)

المفردات :

(فَنَبَذْنَاهُ) : فطرحناه وألقيناه .

(بِالْعَرَآءِ) : بالأرض الفضاء .

(سَقِيمٌ) : مريض ضعيف البدن .

(يَقْطِينٍ) : شجرة القرع وليس لها ساق تقوم عليه .

التفسير

١٤٥ - (فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ) :

ذكر الله - سبحانه وتعالى - فى الآيات السابقة أن يونس - عليه السلام - التقمه الحوت وهو مُلِيم لأنه حين رأى العذاب لم ينزل بقومه ، وكان قد توعدهم به تركهم وقال : لا أرجع إليهم كاذبًا ، ولم يستأذن ربه فى تركهم ، ولولا أنه كان من المواظبين على تسبيح الله والدعاء لبقى فى بطن الحوت إلى يوم البعث ، وفى هذه الآية الكريمة يقول - سبحانه - : «فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ» بأن حملنا الحوت على لَفْظِه وطرحه فى الفضاء الواسع من الأرض لاشجر فيه ، ولا شىء يُغَطِّيه ويواريه من بناء أو سقف ، وهو عليل واهن البدن خائر القوى مما أصابه ، قال ابن عباس : كبدن الصبى حين يولد ، قيل : إنه نبذه على شط دِجْلَةَ قرب مدينة «نينوى» والله أعلم بمكان طرحه فى العراء .

١٤٦ - (وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ) :

أى : وأنبتناها عليه مُظِلّة له كالخيمة ، واليقطين : يفْعِيل من قَطَن بالمكان إذا أقام به ، والمراد به على ماجاء عن ابن عباس فى رواية : الدُّبَّاء ، وهو القرع

المعروف أنبتها الله - تعالى - فَغَطَّته ووقَتْه غوائل الجـو لأنها تجمع خِصالا عدَّة : بَرْد الظِّلِّ ، ونعومة الملمس ، وعظم الورق ، وأنَّ الذباب لا يقع عليها كما قيل ، وكان - عليه السلام - لرقَّة جلده بمكثه فى بطن الحوت يُؤذيه الذباب ، ومُماسَّة ما فيه خشونة ، ويؤلمه حر الشمس ، ويستطيب بارد الظل ، فلطف الله - تعالى - به بذلك ، وذكر الزمخشرى أنه قيل لرسول الله : إنك لتحب القرع : قال : أجل هى شجرة أخى يونس .

وذكر القرطبى عن أنس - رضى الله عنه - قال : قُدِّم للنبى ﷺ مَرَقٌ فِيه دُبَّاء وقَدِيد ، فجعل يتَّبع الدُّبَّاءَ حول القصعة . قال أنس : فلم أزل أُحب الدُّبَّاءَ من يومئذ. - أخرجه الأئمة - وقيل : اليقطين شجرة التين ، وقيل : الموز ، والأكثر على أنه القرع ، وعلى هذا يكون المولى - سبحانه - قد جعل لهذا القرع ساقًا عالية ليظلله ورقها ، والله على كل شيء قدير .

١٤٧ - (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ) :

بعد أن أَبَلَّ يونس من مرضه ، وعُوفى من ضعفه ، وصح بدنه ، أرسلناه إلى عدد كبير يقول من يراه : إنهم مائة ألف أو يزيدون فى مرأى الناظر ، والغرض الوصف بالكثرة ، وقيل : لَفْظ « أَوْ » فى قوله : « أَوْ يَزِيدُونَ » بمعنى الواو ، أى : ويزيدون مع استمرار التبليغ ، والمراد بقوله - تعالى - : (وَأَرْسَلْنَاهُ) ماسبق من إرساله إلى قومه من أهل نينَوى ، حين كُفْرهم قبل أن يؤمنوا ، وقيل غير ذلك .

١٤٨ - (فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ) :

فاستجابوا جميعاً لدعوته ، وآمنوا برسالته ، واتبعوا النور الذى أُنزل معه بعد أن رأوا أمارات العذاب ، فأبقيناهم مُمتَّعين بمالهم وأملاكهم ، آمنين فى سربهم ، وبسطنا عليهم نعمتنا إلى الوقت المعلوم حين تنقضى آجالهم . وكان يونس لايعلم بأنهم آمنوا فرفع عنهم العذاب روى عن عبد الله بن مسعود أن النبى ﷺ قال : « إن يونس وعد قومه بالعذاب ، وأخبرهم أن يأتيهم إلى ثلاثة أيام ، ففرقوا بين كل والدة وولدها وخرجوا ، فجاروا إلى الله واستغفروا فكف عنهم العذاب ، وغدا يونس ينتظر العذاب فلم ير شيئًا ، فخرج يونس مغاضبًا ،فأتى قومًا فى سفينة فحملوه .. » انظر القرطبى .

(فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾)

المفردات :

(فَاسْتَفْتِهِمْ) : فاستخبر كفار مكة توبيخا لهم ، وسلْهُم على سبيل الإنكار عليهم .

(إِفْكِهِمْ) : كذبهم .

(أَصْطَفَى) : أَختارَ ، وهو استفهام توبيخ .

التفسـير

١٤٩ - (فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ) :

أمر الله تعالى نبيه - صلى الله عليه وسلم - فى صدر هذه السورة الكريمة بتبكيت قريش وإبطال مذهبهم فى إنكار البعث بطريق الاستفتاء فى قوله - تعالى - : (فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَآ)[1] وساق البراهين الناطقة بأنه سيتحقق لامحالة وبيَّن ما سوف يلقونه عند ذلك من فنون العذاب واستثنى منهم عباده المخلصين ، وفصل - سبحانه - مالهم من النعيم المقيم ، ثم ذكر - سبحانه - أنه قد ضلَّ مِنْ قبلهم أكثر الأَوَّلين ، وأنه - تعالى - أرسل إليهم منذرين على وجه الإجمال ، ثم أورد قصص بعض الأَنبياء - عليهم السلام - بنوع تفصيل متضمنا كل منها ما يدل على فضلهم وعبوديتهم له - عز وجل - ثم أمره ﷺ هنا بتبكيتهم بطريق الاستفتاء عن وجه ما زعموه من نسبة البنات إلى الله - تعالى - وقد قال بذلك

---

(١) سورة الصافات : من الآية ١١ .

جهينة ، وبنو سلمة ، وخزاعة وغيرهم ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، فجعلوا لله الإناث ، ولأنفسهم الذكور فى قولهم : الملائكة بنات الله ، مع كراهيتهم الشديدة لهنّ ، ووأدهن ، واستنكافهم من ذكرهنّ ، وقد ارتكبوا فى ذلك ثلاثة أنواع من الكفر :

أحدها : التَّجْسيم لأن الولادة مختصة بالأجسام ، والثانى : تفضيل أنفسهم على ربهم حيث جعلوا أقل الجنسين فى نظرهم له ، وأرفعها لهم كما قال ـ تعالى ـ : (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)[١] .

الثالث : أنهم استهانوا بالملائكة وهم أكرم خلق الله عليه ، وأقربهم إليه ، حيث حكموا عليهم بالأنوثة ، ولو قيل لأقلهم درجة وأدناهم منزلة : فيك أُنوثة أو نحوها لثار لكرامته ، وللبس لقائله ثوب النمر .

١٥٠ ـ (أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ) :

إضراب وانتقال من التبكيت بالاستفتاء السابق إلى التبكيت بهذا ، أى : بل أخلقنا الملائكة إناثاً وهم معاينون لخلقهم حتى حكموا هذا الحكم الباطل ، فهم من أشرف الخلائق عند ربهم ، وأعظمهم بعداً عن الأنوثة ، وقوله ـ تعالى ـ : (وَهُمْ شَاهِدُونَ) استهزاء بهم ، وتجهيل لهم ، ومثله قوله ـ تعالى ـ : (أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ)[٢] فإن هذه الأمور لا تُعْلَم إلَّا بالمشاهدة ، إذ لا سبيل إلى معرفتها بطريق العقل ولا النقل ، فلا بد أن يكون القائل بأُنوثتهم شاهد خَلقهم على هذه الصورة ليصح قوله ، ولا سبيل لهم إلى ذلك .

١٥١ ، ١٥٢ ـ (أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) :

استئناف من جهته ـ تعالى ـ غير داخل تحت الاستفتاء ، سِيق لإبطال أصل مذهبهم الفاسد ببيان أن مبناه الإفك والافتراء القبيح ، من غير أن يكون لهم دليل ولاشبهة ، وإنهم لكاذبون فيما يتدينون به مطلقاً أو فى هذا القول ، والمعنى : تنبَّه أيها السامع : إنهم من كذبهم واختلاقهم ليقولون : ولد الله ، بقولهم : الملائكة بنات الله ، وهو المنزه

(١) سورة الزخرف : الآية ١٧ .

(٢) سورة الزخرف : من الآية ١٩ .

عن الوالدية والولدية . وإنهم لكاذبون فى هذا الادعاء بشهادة الأدلة على وحدانيته ـ تعالى ـ ، والولد يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث .

١٥٣ ـ (أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ) :

أى : أى شىء يحمله على أن يختار البنات ـ المكروهات فى زعمكم ـ على البنين المحبوبين لديكم وهو ـ سبحانه ـ الخالق للبنات والبنين ، ومثل ذلك قوله ـ تعالى ـ : (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً)[1] والاستفهام للإنكار والتوبيخ . والمراد : إثبات إفكهم وتقرير كذبهم ، ولهذا قال تبارك وتعالى :

١٥٤ ـ (مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) :

ماذا أصابكم حين حكمتم بغير دليل . كيف تحكمون هذا الحكم الفاسد مع وضوح بطلانه ؟

١٥٥ ـ (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) :

أنسيتم دلائل القدرة والتنزيه المركوزة فى كل العقول ، فلا تتذكرون أنه لا يجوز أن يكون له ولد حتى وقعتم فى هذا الضلال ؟

(أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُواْ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾)

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٤٠

المفردات :

(سُلْطَانٌ مُّبِينٌ) : حجَّةٌ واضحة وبرهان على أَن الملائكة بنات الله .

(الْجِنَّةُ) : الملائكة لأَنهم يستجنُّون ، أَى : يختفون ويستترون ، أَو الجن .

التفسير

١٥٦ ـ (أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ) :

إضرابٌ وانتقال من توبيخهم بما ذكر بتكليفهم مالا يدخل تحت الوجود أَصلًا ، أَى : بل أَلكم حجة واضحة نزلت من السماء بأَن الملائكة بناته ، ضرورة أَن الحكم بذلك لابد له من دليل حسِّى أَو عقلى ، وحيث انتفى كلاهما فلابد من سند نقلى له سلطان وقوة ، ولا سبيل إلى ذلك .

١٥٧ ـ (فَأْتُواْ بِكِتَابِكُمْ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

أَى : هاتوا برهانًا على ذلك يكون مستندًا إلى كتاب منزل من السماء عن الله ـ تعالى ـ أَنه اتخذ ماتقولونه ، ويكون ناطقا بصحة دعواكم إن كنتم صادقين فيها ، والأَمر للتعجيز ، وإضافة الكتاب إليهم للتهكم ، وفى الآيات السابقة من الإنباء عن السخط العظيم ، والإنكار الشديد لأَقاويلهم ، والاستبعاد لأَباطيلهم ، وتسفيه أَحلامهم ، مع استهزاء بهم وتعجيب من قولهم ما لا يخفى على من تأَمَّل فيها .

١٥٨ ـ (وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ) :

التفات للغيبة للإيذان بانقطاعهم عن الجواب ، وسقوطهم عن درجة الخطاب ، واقتضاء حالهم أَن يُعْرض عنهم ، وتُحْكى لآخرين جناياتهم .

والمعنى : استمرأَ المشركون غيَّهم ، وتمادوا فى باطلهم وضلالهم ، وجعلوا بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ وبين الجن المستورين عن العيون قرابة ومصاهرة ، ووالله لقد علمت الجن إن الكفار لمحضرون إلى الله ـ تعالى ـ لينالوا جزاء ما ارتكبوا من جرم ، وما اجترحوا من إثم ، بسبب اعتقادهم الفاسد ، أَخرج آدم بن أَبى إياس ، وعبد بن حميد ، وابن جرير وغيرهم ،

عن مجاهد قال كفار قريش : الملائـكة بنات الله ، فقال لهم أبو بكر الصديق ـ على سبيل التبكيت ـ : فمن أمهاتهن ؟ فقالوا : بنات سروات الجن ، وروى هذا ابن أبي حاتم : عن عطية ، أو أريد وجعلوا بينه وبين الجنَّة نسبًا حيث أشركوهم به ـ تعالى ـ فى استحقاق العبادة ، وروى هذا عن الحسن حيث قال : أشركوا الشيطان فى عبادة الله ، فهذا النسب الذى جعلوه .

١٥٩ ـ (سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ) :

أى : تعالى الله وتقدَّس وتنزَّه عن أن يكون له ولد ، وعمَّا يصفه به الظالمون الملحدون المفترون من صفات النقص التى لا تليق بمقامه الكريم .

١٦٠ ـ (إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ) :

لكن عباد الله المخلصين وهم المتبعون للحق المنزَّل على كل نبى ورسول برآء مما يصفه به الكافرون ، وهم ناجون من النار .

(فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾)

المفردات :

(بِفَاتِنِينَ) : بمضلين أو مفسدين .

(صَالِ الْجَحِيمِ) : داخلها ومُقَاسٍ حرها .

(الصَّآفُّونَ) : الواقفون فى العبادة صفوفًا .

(الْمُسَبِّحُونَ) : المنزِّهُون الله - تعالى - عمَّا لا يليق بجلاله .

(ذِكْرًا) : كتابًا . أو من يُذَكِّرُنا بأمر الله أو بكتابه .

التفسير

١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ - (فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ) :

عود إلى خطاب المشركين ، والضمير فى (عليه) لله - عز وجل - .

والمعنى : فإنكم ومعبوديكم من دون الله ما أنتم وهم جميعًا على الله بفاتنين إلَّا أصحاب النار الذين سبق فى علمه أنهم لسوء اختيارهم يستوجبون أن يصْلَوْها ويذوقوا حرَّها ، ومعنى يفتنونهم على الله: يفسدونهم عليه بإغوائهم واستهوائهم ، من قولك : فتن فلان على فلان امرأته أى : أفسدها .

ويجوز أن تكون الواو فى قوله : (وماتعبدون) بمعنى مع كما فى قولهم : كل رجل وضيعته .

والمعنى : فإنكم مع ما تعبدون ، من دون الله (مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ) أى :على الله (بِفَاتِنِينَ) أى : بمضلين مفسدين (إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ) أى : إلَّا من هو ضال مثلكم معذب بالجحيم .

قال النَّحَّاس : أهل التفسير مجمعون فيما علمت على أن المعنى : ما أنتم بمضِلِّين أحداً إلَّا من قدَّر الله - عز وجل - أن يَضلَّ .

وفيها من المعانى أن الشياطين لَايصِلُون إلى إضلال أحد إلَّا من كتب الله عليه أنه لايهتدى لسوء اختياره ، ولو علم الله - جلَّ شأنُه - أنه يهتدى لحال بينه وبينهم .

١٦٤ - (وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ) :

هذه الآية وما بعدها من قول الملائكة تعظيمًا لله - عز وجل - وإنكارًا منهم عبادة من عبدهم ، أى : وما مِنَّا إلَّا له مقام معلوم فى العبادة والعلم والرُّتْبة ، والرُّجوع إلى أمر الله - تعالى -

فى تدبير العالم مقصور عليه لايتجاوزه ، ولا يستطيع أن ينزلَ عنه خضوعًا لعظمته ـ تعالى ـ وخشوعًا لهيبته ـ سبحانه ـ وتواضعًا لجلاله ـ جل شأنه ـ .

والآية تشير إلى أنَّ المَلَك لا يتعدَّى مقامه إلى ما فوقه ، ولا يهبط عنه إلى ما دونه ، قال مقاتل : هذه الثلاث الآيات (وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ) ومابعدها ، نزلت ورسول الله ﷺ عند سدرة المنتهى ، فتأخَّر جبريل ، فقال النبي : أهنا تفارقنى ؟ فقال : ما أستطيع أن أتقدم من مكانى . وأنزل الله ـ تعالى ـ حكاية عن قول الملائكة : (وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ . . .) إلى آخر الآيات .

١٦٥ ـ (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ) :

أى : وإنَّا لنحن الصَّافون أنفسنا فى مواقف العبودية دائمًا ، وقيل : الصافون أقدامنا فى الصلاة ، وقيل : الصافون حول العرش ننتظر الأمر الإلٰهى ، وأخرج ابن أبى حاتم عن الوليد ابن عبد الله بن مغيث قال : كانوا لَا يَصُفُّون فى الصلاة حتى نزلت (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ) ، وأخرج مسلم عن حذيفة قال : قال رسـول الله ﷺ : « فُضِّلْنا على الناس بثلاث : جُعِلَت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجُعِلت لنا الأَرض مسجدًا ، وجُعِلت لنا تربتها طهورًا إذا لم نجد الماء ، وليس يصطف أحد من أهل المِلل فى صلاتهم غير المسلمين » .

وفى صحيح مسلم عن جابر بن سَمُرة قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن فى المسجد فقال : « أَلَا تَصُفُّون كما تصفُّ الملائكة عند ربها ، فقلنا : يارسول الله ، كيف تَصُفُّ الملائكة عند ربها ؟ قال : يُتِمُّون الصفوف الأُوَل ، ويتراصُّون فى الصف » . وقال أبو نَضرة : كان عمر ـ رضى الله عنه ـ إذا أُقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه ثم قال : « أقيموا صفوفكم ، استووا قيامًا يريد الله بكم هَدْى الملائكة ، ثم يقول : (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ) تأخر يا فلان ، تقدم يا فلان ، ثم يتقدم فيكبِّر » .

١٦٦ - (وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ) :

أى : المنزِّهون الله عمَّا لا يليق به - سبحانه - ويدخل فيه ما نسبه الكفرة إلى الله - تعالى - وقيل : أى القائلون : سبحان الله . وأخرج عبد بن حُميد وغيره عن قتادة أنه قال : المُسبِّحون . أى : المصلُّون . ويقتضيه ما روى عن ابن عباس : أنَّ كل تسبيح فى القرآن بمعنى الصلاة . والأُسلوب يُفيد أنهم المواظبون على ذلك من غير فُتور . وخواص البشر لا تخلو من الاشتغال بالمعاش . ولعلَّ الكلام لا يخلو عن تعريض بالكفرة .

قال الزمخشرى : (وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ) أى : الْمُنَزِّهُون . أو المَصَلُّون . والوجه أن يكون وما قبله وهو قوله : (سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ) من كلام الملائكة حتى يتصل بذكرهم فى قوله : (وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ) كأنَّه قيل : وقد علمت الملائكة وشهدوا : أن المشركين محضرون يوم القيامة لعقابهم ، وقالوا : سبحان الله . فنزَّهوه عن ذلك . واستثنوا عباد الله المخلصين ، وبرَّءوهم منه . وقالوا للكفرة : إنَّكم وآلهتكم لا تقدرون أنْ تفتنوا على الله أَحدًا من خلقه وتضلوه . إلَّا من كان مثلكم ممن علم الله أنهم من أهل النار لكفرهم . وكيف نكون مناسبين لرب العزة ويجمعنا وإياه جنس واحد ، وما نحن إلَّا عبيد أذلَّاء بين يديه لكل منا مقام من الطاعة لا يستطيع أن يزلّ عنه خشوعًا لعظمته وتواضعًا لجلاله ، ونحن الصَّافُّون أقدامنا وأجنحتنا لعبادته ، مذعنين خاضعين مسبِّحين مُمَجِّدين كما يجب على العباد لربهم .

١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ - (وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ) :

عود إلى الإخبار عن المشركين : بأَنهم كانوا قبل بعثة محمد ﷺ يقولون : لو أَنَّ عندنا ذكرًا ، أى : كتابا من كتب الأَولين الذين أُنزل عليهم التوراة والإنجيل ، لأَخلصنا

العبادة لله ، ولما كذَّبنا كما كذبوا ، وخالفنا كما خالفوا ، وقيل : كانوا يتمنون قبل أن تُبعث يا محمد لو كان عندهم من يذكِّرهم بأمر الله ، وما كان من أخبار القرون الأُولى ، ويأْتيهم بكتاب من عند الله ، إذا لاتَّبعوه ، ولما حاربوه ، فجاءهم نبي هو خير الأَنبياء ، وسيد المرسلين ،ومعه كتاب مُعجز مهيمن على سائر الكتب والأَخبار ، وهو القرآن الكريم ، كتاب الله الذى لا يأْتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلْفه ، حوى الخير والسعادة للبشرية كلها .

١٧٠ - (فَكَفَرُواْ بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) :

فجاءهم الكتاب الذى تمنوه وطلبوه فكفروا به ، فسوف يعلمون عاقبة كفرهم ، وما يحل بهم من الانتقام ، وهو وعيد أَكيد ، وتهديد شديد على كفرهم بربهم ، وتكذيبهم لكتابه ورسوله .

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾)

المفـردات :

(فَتَولَّ عَنهُمْ) : فأَعرض عن كفار مكة .

(حَتَّىٰ حِينٍ) : إلى الوقت الذى أمهلوا فيه ، أو إلى بدر أو فتح مكة .

(بِسَاحَتِهِمْ) : بفنائهم ، والمراد : بهم .

(فَسَآءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ) أى : فبئس الصباح صباحهم .

التفسير

١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ - (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) :

استئناف مُقرِّر للوعيد ، وتصديره بالقسم لتمام العناية بتحقيق مضمونه ، أى : وبالله لقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين بالنصرة والغلبة على الكافرين ، والكلمة هى قوله - تعالى - : (إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) وإنما سماها كلمة وهى كلمات عدة ؛ لأنها لمَّا انتظمت فى معنى واحد كانت فى حكم كلمة مفردة . وقُرِئَ : كلماتنا ، والمراد : الوعد بعلوِّهم على عدوهم فى مقام الحِجاج ، وملاحم القتال فى الدنيا ، وعلوهم على غيرهم فى الآخرة ؛ كما قال - تعالى - : « وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[١] ولا يلزم انهزامهم فى بعض المشاهد ، وماجرى على بعضهم من القتل ؛ لأن قاعدة أمرهم وأساسه والغالب منه الظفر والنصرة وإن وقع فى تضاعيف ذلك شَوْبٌ من البلاء والمحنة ، فالحكم للغالب ، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - : « إن لم يُنْصروا فى الدنيا نصروا فى الآخرة » .

١٧٤ - (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ) :

أى : فأعرض عن كفار مكة ، واصبر على أذاهم لك ، وانتظر إلى وقت مؤَجل ، فإنا سنجعل لك العاقبة والنصرة عليهم ، والظفر بهم ، وذلك يوم بدر ، أو فتح مكة ، والأخير هو الظاهر ، فإنه ﷺ قد نصر عليهم نهائيا فى فتح مكة ؛ ودخلوا فى دين الله أفواجا ، وصدق الله إذ يقول : (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ) فقد أحياهم الله بالإسلام .

١٧٥ - (وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ) :

وأبصر ما يكونون عليه يوم القيامة من العذاب فسوف يُبصرون ما يكون لك من مزيد الثواب ، أو المراد : وأبصرهم يوم القيامة وهم يعذبون ، فسوف يبصرون ويندمون حين لا ينفعهم ذلك ، وفى ذكر ذلك تسلية للرسول ﷺ وتنفيس عنه .

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢١٢ .

١٧٦ ـ (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ) : استفهام توبيخ :

والمعنى : أسُلبوا عقولهم فبعذابنا يستعجلون ؟ فكأنه يقول : لا تستعجلوه فإنه واقع بكم ، إن استمررتم على كفركم وتكذيبكم لرسولكم ، ورُوى أنه لَمَّا نزل (فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ) قالوا : متى ذلك ؟ فنزلت .

١٧٧ ـ (فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ) :

أى : فإذا نزل العذاب الموعود بساحتهم وحل بهم وهم مصرون على الكفر فبئس صباح المنذرين صباحُهم ، رُوى فى الصحيحين : عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : لما أتى رسولُ الله ﷺ خيبرَ وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم الْمَساحِى قالوا : محمد والخميس ، ورجعوا إلى حصنهم ، فقال ﷺ : « الله أكبر خربت خيبر ، إنَّا إذا نزلنا بساحة قوم (فَسَآءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ) » .

قال الزمخشرى : مَثَّل العذاب النازل بهم بعد ما أُنْذِرُوه فأنكروه بجيش أنذر بعضُ النصحاء قومه بهجومه عليهم فلم يلتفتوا إلى إنذارهم ، ولا أخذوا أهبتهم ، ولا دبَّروا أمرهم تدبيرًا ينجيهم حتى أناخ بفنائهم بغتة ، فشنَّ عليهم الغارة ، وقطع دابرهم ، وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحاً فسميت الغارة صباحاً وإن وقعت فى وقت آخر ، وما فَصُحَتْ هذه الآية ولا كانت لها الرَّوْعة التى تحسُّ بها ويروقك موردها على نفسك وطبعك إلا لمجيئها على طريق التمثيل . ا هـ :كشاف بتصرف .

١٧٨ ـ (وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ) :

أى : أعرض عنهم إلى وقت ينتهى فيه أمرهم ولا تهتم بمعارضتهم وتكذيبهم إياك .

١٧٩ ـ (وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ) :

أى : أبصر ما يستقبلك ويستقبلهم ، فسوف يرون مابه يستعجلون ، إن استمروا على كفرهم .

والآية تسلية لرسول الله إثر تسلية ، وتأكيد لوقوع ما أُنذروا به عقب تأكيد ، مع مافى إطلاق الفعلين عن المفعول من الإيذان بأن ما يبصره - عليه السلام - حينئذ من فنون المسرّات وما يبصرونه من أنواع المضار لايحيط به الوصف والبيان ، ويجوز أن يراد بقوله - تعالى - : (وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ) عذاب الدنيا وعذاب الآخرة .

(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾)

المفردات :

(سُبْحَانَ رَبِّكَ) : تنزيهاً لربِّك يا محمد عما يصفه به المشركون .

(الْعِزَّةِ) : الغلبة والقدرة .

التفسير

١٨٠ - (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) :

أى : تنزيهاً لله - تعالى - عن كل ما يصفه به المشركون مما لا يليق بكبريائه وجبروته ، مما حكى عنهم فى السورة الكريمة « كاتِّخَاذ الصَّاحبة والولد » وزعمهم أن الله لن ينصره عليهم وكأنه قيل : سبحان من هو مربِّيك ومكمِّلك ومن له الْعِزةُ والغلبة والبطش على الإطلاق عما يصفه به المشركون ، وما يلحقونه به من الأُمور التى منها : ترك نصرتك عليهم ، كما يدل عليه استعجالهم بالعذاب والمقصود من قوله : (رَبِّ الْعِزَّةِ) أَنَّهَا لَهُ - تعالى - وحده ، وما من عزة لأحد من الملوك وغيرهم إلا وهو - عز وجل - ربُّهَا ومالكها .

قال الزمخشرى : أضيف الرب إلى العزة لاختصاصه ـ تعالى ـ بها ، كأنّه قيل : ذى العزة ، كما تقول : صاحب صدق لاختصاصه بالصدق .

١٨١ ـ (وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ) :

تشريف للرسل كلهم بعد تنزيهه ـ تعالى ـ لنفسه عمّا ذُكر ، وتنويه بشأنهم وإيذان بأنهم سالمون من كل المكاره ، فائزون بكل المآرب ، لهم أمن الله ـ عز وجل ـ فى الدنيا ويوم الفزع الأكبر ؛ لأنهم الذين بلّغوا عن الله الشرائع ، ونشروا رسالة السماء إلى الأرض ، وكانوا رواد الناس إلى الصراط المستقيم ، والطريق القويم .

١٨٢ ـ (وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

إشارة إلى وصفه ـ تعالى ـ بصفاته الكريمة الثبوتية . بعد التنبيه على اتصافه ـ عز وجل ـ بجميع صفاته السلبية . والمعنى : والثناء لله وحده . خالق العالمين ومربيهم على موائد كرمه ، القائم على الخلق أجمعين . وقال القرطبى : (الحمد لله رب العالمين) أى : على إرسال الرسل مبشرين ومنذرين . وقيل : على هلاك المشركين . ودليله : « فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »[1] .

قلت : والكل مراد ، والحمد يعمّ . ا هـ « بتصرف يسير » .

والمراد من هذه الآيات : تنبيه المؤمنين على كيفية تسبيحه ـ سبحانه ـ وتحميده والتسليم على رسله ـ عليهم السلام ـ ولعلّ توسيط التسليم على المرسلين بين تسبيحه ـ تعالى ـ وتحميده لختم السورة الكريمة بحمده ـ تعالى ـ على مافيه من الإشعار بأن توفيقه ـ تعالى ـ للتسليم على المرسلين من جملة نعمه الموجبة للحمد .

(١) سورة الأنعام : الآية ٤٥ .

وهذه الآيات من الجوامع والكوامل ، ووقوعها فى موقعها هذا ينادى بأنه كلام من له الكبرياء ومنه العزة – جل جلاله – وعمَّ نواله ، وقد أخرج الخطيب : عن أبى سعيد قال : كان رسول الله ﷺ يقول بعد أن يسلم : (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۞ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) وأخرج ابن أبى حاتم : عن الشعبى قال : قال رسول الله ﷺ : « من سرَّه أن يُكْتَال له بالمكيال الأوفى من الأَجْـــرِ يوم القيامة فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم : (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۞ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) » .

سـورة ((ص))

وجه مناسبتها لما قبلها

١ ـ سورة « صٓ » هى كالمتمِّمة لسورة «الصافات» التى قبلها لأنه ـ سبحانه وتعالى ـ ذكر فيها بعض الأنبياء الذين لم يذكرهم فى السورة السابقة كداود وسليمان ـ عليهما السلام ـ

٢ ـ كذلك لما ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ فى سورة « الصافات » عن الكفار أنهم قالوا : « لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ » وأنهم كفروا بالذكر لما جاءهم بدأ ـ عزَّ وجلَّ ـ فى سورة « صٓ » بالقسم بالقرآن ذى الذكر ، وفَصَّل فيها ما أجمله هناك من أحوال كفرهم .

ومن دَقَّق النَّظر فى السورتين لاحت له مناسبات أُخرى كذكر قصص الأنبياء والمرسلين مع أُممهم . وكيف نصر الله الحق وأعزَّ سلطانه . ودمر الباطل وقوَّض صولجانه .

مقـدمة :

سورة « صٓ » مكيَّة وآياتها ثمان وثمانون آية . وهى السورة الثامنة والثلاثون من سور القرآن الكريم .

بدئت السورة الكريمة بالقسم بالقرآن ذى الشَّرف على أنه الحقُّ لا ريب فيه ، ثم ذكرت أَنَّ الَّذين كفروا ما منعهم عن الإيمان بالله . والتَّصديق برسوله إلَّا الأَنفة والتكبُّر على الحقِّ وحب الجدل والمشاقَّة والمعاندة لرسوله .

ثم قصَّ الله فيها أخبار الأَنبياء والرسل السابقين ليكون ذلك زجرًا للكافرين والمكذبين ، وتثبيتًا للرَّسول وللمؤمنين : وليصبر الرسول على تبليغ الدعوة مهما لاقى فى سبيلها من أهوال وأذى .

وذكر الله فى هذه السورة ما لم يذكره فى سورة « الصَّافَّات » ذكر قِصَّة داود ذى القوَّة فى الدين والدُّنيا ، الأَوَّاب الَّذِى ذَلَّل الله الجبال تسبِّح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار ، وذلَّل له الطَّيْر تُرَجِّعُ معه التسبيح ، وقَوَّى الله ملكه وآتاه النُّبوة والقضاء فى الخصومات ، ثم تحدَّثت السورة عن خبر الخصم الَّذين تَسوَّرُوا المحراب على داود ، وقضى بينهم دون تثبُّت ومراجعة لأَقوال الخصم الآخر حتى يتَّضِح له وجه الحق جليًّا ، وعلم داود أن الله امتحنه بهذه القصة ، فاستغفر رَبَّه ، وخَرَّ راكعًا وأَناب ، فغفر الله له ذلك ، وله عنده زلفى وحسن مآب ، ووَصَّى الله نبيَّه داود - وهي وصيَّة من الله كذلك لكل الولاة ، والحكام - أن يحكموا بين الناس بالحقِّ المنزَّل من عنده ، ولا يعدلوا عن ذلك فيضلُّوا عن سبيل الله ؛ لأَنَّ العدل أساس الملك ، وقِوام الأمم ، وأمان الشعوب ، ولقد تَوعَّد الله من ضلَّ عن سبيله ، وتناسى يوم الحساب بالوعيد الشديد ، والعذاب الأَليم .

ثم بيَّنت السورة أَنَّ مِن حكمة الله وعدله أَلَّا يُسوَّى بين المؤمنين والكافرين ، وذكرت السورة أن الله وهب لداود سليمان الكثير العبادة والإنابة ، ومن أخباره أنه عُرض عليه بالعَشِيِّ الخيلُ فقال : إنِّى آثرت حب الخير - أى : الخيل - لأنَّها عدَّة الخير ، وهو الجهاد فى سبيل الله ، وظلَّ مشغولًا بعرضها عليه حتى غابت عن ناظريه ، ثم أمر بردها عليه ليتعرف أَحوالها وأخذ يمسح سوقها وأعناقها رفقًا بها وحبًّا لها ، وحدبًا عليها ، ولقد امتحن الله سليمان لئلا يغترَّ بأُبَّهة الملك وعظمته فأَلقاه على كرسيِّه جسدًا بلا قُوَّة يستطيع بها تدبير الملك ، فتنبَّه لهذا الامتحان فرجع إلى الله وأناب ، وطلب من الله ملكًا لا ينبغى لأَحد من بعده ، فسخَّر له الوهَّاب الرِّياح تجرى بأَمره ، كما سخَّر الشياطين وجعلها طوع مشيئته .

وعقَّبت السورة على ذلك ببيان ما أَعدَّه الله للطائعين والمتقين من ثواب وحسن مآب ، وللعاصين والطاغين من عذاب وعقاب وشر مآب .

ثم صوَّرت السورة تخاصم أَهل النار وتحسرهم حينما يقولون : (مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ * أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ) .

وفى السورة يأمر الله رسوله أن يقول للكافرين المشركين به : إنما أنا منذر ولست إلٰهًا ، ومامن إله إلَّا الله الواحد القهَّار ، ربّ السَّمٰوات والأرض ومابينهما ، مالك جميع ذلك ، ومتصرف فيه ، العزيز الغفار يغفر مع عظمته وعزته . قل لهم يامحمد : إرسال الله إيَّاى لكم خير عظيم وشأن بليغ هام أنتم عنه مُعْرضون غافلون ، لا تفكِّرون فيه ، ولولا الوحى ماكنت أدرى باختلاف الملأ الأعلى فى شأن آدم – عليه السلام – وخلقه وخلافته ، وامتناع إبليس عن السجود له ، ومحاجَّته ربَّه فى تفضيله عليه .

وهذه القصة ذكرها الله فى سورة « البَقَرة » وفى أول سورة « الأَعْرَافِ » وفى سورة « الْحِجْر » وسورة « سبحان » – « والكَهْف » وذكرها القرآن هنا ليذكِّر الناس بما كان بين أبيهم آدم وعدوِّه وعدُو الله إبليس عليه اللَّعنة ، وليعلموا أن تكبُّره كان سببًا فى طرده من رحمة الله إلى يوم القيامة .

وفى ختام السورة يقول الله – تعالى – : قل يامحمد لهؤلاء المشركين : ما أسألكم على هذا الإبلاغ وهذا النصح أجرًا من عرض الحياة الدنيا ، وما أنا من المتكلِّفين المتصنِّعين المدَّعين للنبوَّة ، وما القرآن الذى نزل علىَّ إلَّا تذكير وموعظة للعالمين ، ولتعلمنَّ صحة خبره وصدق ماجاء به من وعد ووعيد ، وبعث وجزاء ، وعلوم وآيات كونية بعد حين ، عندما تُكشف الأستار ، وتُذاع الأسرار أمام من لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾)

المفـردات :

(صٓ) : اختلف فى تفسيره اختلافهم فى نظيره من فواتح السُّور ، فارجع إلى ما كتبناه فى صدر سورة « البقرة » .

(ذِى الذِّكْرِ) : ذى الشَّرف ، أَو الذكر : الموعظة .

(عِزَّةٍ) : حمية واستكبار عن الحق .

(وَشِقَاقٍ) : ومعاندة ومخالفة .

(قَرْنٍ) : يطلق مجازًا على الأمة .

(فَنَادَوْا) : فاستغاثوا وجأَروا ، والنداءُ والجؤار : رفع الصوت .

(وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ) : وليس الوقت وقت فِرارٍ وخلاص .

والمناص : التـأخر والْفَوْت .

التفسـير

١ – (صٓ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ) :

(صٓ) : بالسكون على الوقف عند الجمهور؛ لأنها حرف من حروف الهجاء مسرودة على منهاج التعداد ، ويقول فى مثله السلف : الله أعلم بمراده ، وقد فصلنا آراءَ العلماء فى مثله أول « البقرة » وغيرها فارجع إليه ، وقرأ أُبى والحسن وغيرهما « صادِ » بكسر الدال ، وأخرج ابن جرير عن الحسن : أنَّ صادِ – بكسر الدال منونا – أَمْر من صَادى ، أى : عارض ، ومنه الصَّدى وهو ما يعارض الصوت الأَول ، ويقابله بمثله فى الأَماكن الخالية .

والمعنى : عَارِضِ القرآن بعملك ، أى : اعمل بأوامره ونواهيه ، وقال عبد الوهاب : أى : اعرضه على عملك فانظر أين عملك من القرآن .

(وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ) : قسم أقسم به ربنا – عز وجل – أى : أُقسم بالقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد ونفع لهم فى المعاش والمعاد ، وقيل : ذى الذكر : ذى الشرف والمكانة ، ولا منافاة بين القولين فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإنذار ، وجواب القسم

يدل عليه المقام، أى : وحق القرآن إنه لمُعجز، أو إنه ليجب العمل به، وقيل: الجواب قوله تعالى : (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) .

٢ - (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) :

معنى الآية مع ما قبلها كما يلى : وحق القرآن المشتمل على التذكير والعبرة إنه ليجب الإيمان به ، لكن الكافرين لم يؤمنوا، لا لخَلَل وجدوه فيه ، بل لأنَّهم فى استكبار شديد عن اتباع الحق، وشقاق أى : مخالفة لله ومعاندة ومشاقَّة لرسوله، ولذلك كفروا به .

وأصل الشِّقاق : إظهار المخالفة على وجــه المساواة للمُخَالِف ، أو على وجه الفضيلة عليه ، وهو مأخوذ من الشَّق أى: كأنه فى شِق غير شِق صاحبه ، فهو يترفَّع عليه بأن يكون معه فى شِق واحد ، ومثله المعاداة، وهو أن يكون أحدهما فى عُدْوَة والآخر فى عُدْوَة ، والتعبير بفِى فى قوله تعالى : (فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) للدلالة على استغراقهم فيهما ، والتنكير فى (عزة وشقاق) لشدتهما .

٣ - (كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ) :

وعيد لهم على كفرهم واستكبارهم ببيان ما أصاب أضْرابهم ، لتخويفهم مما أهلك به الأمم المكذِّبة المستكبرة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسل ، وتكذيبهم الكتب المنزَّلة من السماء ، وتماديهم فى الشقاق والعناد والكِبْر .

والمعنى : كثيرًا ما أهلكنا قبلهم من أُمَّة مكذِّبة ، وحين جاءهم العذاب وحلَّ بهم العقاب استغاثوا وجأروا إلى الله بالدعاء والتوبة ، وليس ذلك بمُجْدٍ عنهم شيئًا ، فليس الوقت وقت فرار من العقاب ، ولا وقت هرب ونجاة من العذاب بالتَّوبة والدعاء ، وما اعتبر كفار مكة بهؤلاء ، بل تمادوا فى غيِّهم وفرارهم من الإيمان ، وأخرج الطَّسْتى عن ابن عباس : أنَّ نافع بن الأزرق قال له : أخبرنى عن قوله تعالى : (وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ) فقال : ليس بحين فِرار .

وعن الكلبى أنه قال : كانوا إذا تقاتلوا فاضطروا قال بعضهم لبعض : مناص، أى : عليكم بالفرار ، فلما أتاهم العذاب قالوا : مناص ، فقال تعالى : (وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ)[1] .

---

(١) وقال الفراء : النوص : التأخر ، يقال : ناص عن قرنه ينوص نوصا ومناصا فروزاغ ، ويقال : ناص ينوص إذا تقدم . أضداد .

(وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾)

المفردات :

(عُجَابٌ) : بالغ الغاية فى العجب .

(الْمَلأُ) الأشراف والوجوه .

(امْشُواْ) : سيروا على طريقتكم وامضوا على دينكم .

(الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ) : دين النصرانية .

(اخْتِلَاقٌ) : كذب وافتراء من غير سبق مِثْل له .

(الْأَسْبَابِ) : المعارج إلى السماء .

التفسير

٤ - (وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ) :

حكاية لأباطيلهم المتفرعة على ما حكى من استكبارهم وشقاقهم ، أى : عجب مشركو مكَّةَ من أنْ جاءهم رسول بشرمن جنسهم أمىّ من نوعهم ، والمراد : أنهم عدُّوا ذلك أمرا عجيباً خارجاً عن احتمال الوقوع ، وأنكروه أشد الإنكار ، لا أنهم اعتقدوا وقوعه وتعجبوا منه ، وأعجب العجب أن ينكروا أن يكون الرسول من البشر ، ولا ينكروا أن يكون الإله المعبود لهم من الحجر .

وقال الكافرون : هذا ساحر يجيءُ بالكلام المموه الذى يخدع به الناس ، شديد الكذب فيما يسنده إلى الله – عز وجل – من الإرسال والإنزال ، وهل ترى كفرًا أعظم ، وجهلا أبلغ من أن يسمُّوا من صدَّقه الله بوحيه ، وأيَّده بالمعجزة الدالة على صدقه ساحرًا كذابا .

وقوله – تعالى – : (وَقَالَ الْكَافِرُونَ) فيه وضع الظَّاهر موضع الضمير غضباً عليهم وذمًّا لهم ، وإيذاناً بأنه لايتجاسر على مثل ما يقولون إلَّا المتوغِّلون فى الكفر .

٥ – (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَـٰهاً وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) :

أى : أزَعم أن المعبود واحد لا إله إلا هو ، أنكر المشركون ذلك – قبحهم الله تعالى – وتعجَّبوا من ترك الشرك بالله لأنهم كانوا قد تلقَّوا عن آبائهم حُبَّ عبادة الأوثان ، وأشربته قلوبهم . فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم وإفراد الإله بالوحدانية . أعظموا ذلك ، وتعجَّبوا غاية العجب وأشده . وقالوا : (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهاً وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) .

وقيل : مـــدار تعجبهم عدم وفاء علم الإله الواحد وقدرته بالأشياء الكثيرة الموجودة فى هذا الكون الكبير ، أخرج الترمذى وصححه عن ابن عباس قال : لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل فقالوا : إنَّ ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويقول ويقول ، فلو بعثت إليه فنهيته ، فبعث إليه فجاء النبى ﷺ فدخل البيت وبينهم وبين أبى طالب قدر مجلس فخشى أبو جهل إن جلس إلى أبى طالب أن يكون أرقَّ عليه فجلس فى ذلك المجلس فلم يجد رسولُ الله ﷺ مجلساً قرب عمه فجلس عند الباب ، فقال له أبو طالب : أى ابن أخى مابال قومك يشكونك ؟ يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول ، قال : وأكثروا عليه القول ، وتكلم رسول الله ﷺ فقال :

يا عم ، إنى أُريدهم على كلمة واحدة يقولونها يدين لهم بها العرب ، وتؤدى إليهم بها العجم الجزية ففرحوا لكلمته ولقوله ، فقال القوم : ما هى ؟ وأبيك لَنُعْطِينَّها وعشرا ، قال : لَا إلٰه إلَّا الله . فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون : أجعل الآلهة إلٰهًا واحدًا إن هذا لشىءٌ عجاب ، وفى رواية : أنهم قالوا : سلْنا غير هذا . فقال – عليه الصلاة والسلام – : لوجئتمونى بالشمس حتى تضعوها فى يدى ما سألتكم غيرها ، فغضبوا وقاموا غِضَاباً وقالوا : والله لنشتمنك وإلٰهك الذى يأْمرك بهذا .

٦ – (وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنهُمْ أَنِ امْشُواْ وَاصْبِرُواْ عَلَىٰٓ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ) :

أى : وانطلق الأشراف من قريش من مجلس أبى طالب بعد ما قاله لهم رسول الله ﷺ وشاهدوا صموده فى تبليغ الرسالة ، ونشر عقيدة التوحيد ويئسوا مما كانوا يرجونه منه – عليه السلام – وكان فيهم : أبو جهل ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد المطلب ابن عبد يغوث ، وعقبة بن أبى مُعيط يوصى بعضهم بعضاً – انطلقوا – وهم يتحاورون ويتفاوضون – أن سيروا على طريقتكم ، وداوموا على مسيرتكم ، واثبتوا على عبادة آلهتكم متحمِّلين لما تسمعونه فى حقِّها من القدح .

والإشارة فى (إنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ) إلى ما وقع وشاهدوه من أمر النبى ﷺ وشدة تمسُّكه بعقيدته من التوحيد ، ونفى ألوهية آلهتهم ، أى : إنَّ هذا لشىء يراد من جهته إمضاؤه وتنفيذه لا محالة من غير صارف يلويه ، ولا عاطف يثنيه ، لا قول يُقَال من طرف اللسان أو أمر يُرجَى فيه المسامحة بشفاعة إنسان ، فاقطعوا أطماعكم بنزوله على إرادتكم ، واصبروا على عبادة آلهتكم ، وقال القفال : هذه عبارة تذكر للتحذير والتخويف .

وقيل فى معنى الآية : إنَّ هذا الذى يدَّعيه من أمر التوحيد أو يقصده من أمر الرِّياسة والترفُّع على العرب والعجم لشىء يُتَمنَّى أو يريده كل أحد ، ولكن لا يكون لكلِّ ما يتمناه أو يريده فاصبروا .

والمعنى : ليس غرضه من هذا القول تقرير الدين ، وإنما غرضه أن يستولى علينا ، ونكون له أتباعاً ، فيتحكم فى أموالنا وأولادنا بما يريد فاحذروا أن تطيعوه .

٧ - (مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا اخْتِلَاقٌ) :

أى : ما سمعنا بهذا التوحيد الذى يدعونا إليه محمد فى ملَّة النصارى آخر الْمِلَل ، بل سمعنا خلافه وهو عدم التوحيد من أفواه النصارى ، لأنهم كانوا يدينون بالتَّثْلِيث ويزعمون أنه الدِّين الَّذى جاء به عيسى - عليه السلام - ، (إِنْ هَٰذَآ إِلَّا اخْتِلَاقٌ) أى : ما هذا الذى يدعونا إليه محمد من التوحيد وترك عبادة الأصنام إلَّا افتراء من غير سبق مِثْلٍ له ، وكذب مصنوع اختلقه محمد وابتدعه .

٨ - (أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ) :
استفهام إنكار ،أنكروا اختصاصه بالوحى من بينهم وقالوا : أَخُصَّ محمدٌ بنزول القرآن عليه من بيننا ونحن رؤساء الناس وأشرافهم ؟وهذا كقولهم : « لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ »(١) وأمثال هذه المقالات الباطلة ترجمة عما كانت تغلى به صدورهم من الحسد لرسول الله والحقد عليه أن خُصَّ دونهم بالرسالة ، وفاز من بينهم بالنبوة (بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى) أى : ليس كفرهم بالقرآن عن يقين بل هم فى حيرة وتردُّد وتخبُّط فى شأْن ذِكْرى وهو القرآن الذى أنزلته على رسولى لميلهم إلى التَّقليد ، وإعراضهم عن الأَدلة المؤَدِّية إلى العلم بحقِّيَّته ، وليس عندهم بالنسبة للقرآن ما يقطعون به من التهم ، فلذا تراهم ينسبونه إلى السِّحر تارة ، وإلى الاختلاق مرة أخرى (بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ) أى : بل إنهم لم يتحيروا ويتخبطوا إلَّا لأَنَّهُمْ لم يذوقوا عذابى بعد ، فاغتروا بطول الإمهال ، فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الحسد والشك ، يعنى : أنهم لا يصدقون إلَّا أن يمسهم العذاب ، فيضطروا إلى التصديق ، ولن ينفعهم ذلك حينئذ .

وفى التعبير بلمَّا دلالة على أن ذوقهم العذاب محقق وقريب الوقوع إن لم يؤمنوا .

٩ - (أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ) :

يعنى : أنهم ليسوا بمالكى خزائن الرحمة حتى يصيبوا بها من شاءُوا ويصرفوها عمن شاءُوا ، ويتخيروا للنبوَّة بعض صناديدهم وأشرافهم ، ويترفَّعوا بها عن محمد - عليه الصلاة

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٣١

والسلام - وإنما يملك الرحمة وخزائنها العزيز القاهر على خلقه ، الوهاب الكثير العطايا المصيب بها مواقعها . الذى يقسِّمها على ما تقتضيه حكمته ، يعطى - سبحانه - ما يريد لمن يريد ، وفى هذا إشارة إلى أن النبوّة هبة ربَّانيَّة ومنحة إلٰهيَّة ليس لأحد من خلقه شأن فيها .

١٠ - (أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِى الْأَسْبَابِ) :

أى : بل ألَهم ملك هذه الأجرام العلويَّة ، والأجسام السفليَّة حتى يتكلموا فى الأمور الربانية ، ويتحكَّموا فى التدابير الإلهية التى يستأثر بها رب العزة والكبرياء ، فإن كان لهم ما ذكر من الملك فليصعدوا فى المعارج ، وليتدرَّجوا فى المراقى والمناهج التى يُتَّصل بها إلى السموات ، فليدبِّروها وليتصرَّفوا فيها ويعطوا النبوة لمن شاءوا .

وقال الزمخشرى ومتابعوه : أى : فليصعدوا فى المعارج والطرق التى يُتوصَّل بها إلى العرش حتى يستولوا عليه . ويدبِّروا أمر العالم وملكوت الله - تعالى - وينزلوا الوحى على محمد ، وهذا أمر توبيخ وتعجيز .

ثم وعد نبيَّه النصر عليهم فقال :

١١ - (جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ) :

أى : هم جند حقير مقموع[١] ذليل قد انقطعت حُجَّتهم فقالوا ما قالوا ، والكلام مرتبط بما قبل (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) أى : هم جند حقير من الأحزاب الذين تحزَّبوا على المرسلين فاستأصلناهم . فلا تهمنك عزتهم وشقاقهم فإنى أهزم جمعهم وأسلب عزَّهم ، وهذا إيناس للرسول ﷺ وقد فعل بهم هذا فى يوم بدر ، قال قتادة : وعدهم الله أنَّه سيهزمهم وهم بمكة فجاء تأويلها يوم بدر .

---

(١) قمعه - كمنعه - : ضربه وقهره وذلله ، والمقموع : المقهور . ا هـ : القاموس .

و (هُنَالِكَ) : إشارة لبدر وهو موضع تحزّبهم لقتال الرسول ، والأحزاب : الجند ، كما يقال : جند من قبائل شتّى ، وقال الفرّاء : المعنى : هم جند مغلوب ، أى : ممنوع من أن يصعد إلى السماء .

وأصل الْهَزْم : غمز الشىء اليابس حتى ينحطم كهزم الشّنّ وهزم القِثَّاء والبَطِّيخ ، ومنه الهزيمة ، كما يعبر عنه بالحطْم والكسر .

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(الأَوْتَادِ) : جمع وتِد وهو معروف .

(وَأَصْحَابُ الْئَيْكَةِ) الأيكة : الشجر الكثيف الملتف ، وأصحابها هم قوم شعيب .

التفسير

١٢ ، ١٣ ـ (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُوْلَٰئِكَ الْأَحْزَابُ) :

استئناف مقرر لمضمون ما قبله ببيان أحوال الطغاة العتاة ، وما فعلوا من الكفر والتكذيب لرسلهم وما فُعِل بهم من العقاب تعزية للرسول وتسلية .

والمعنى : كذّبت قبل هؤلاء قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، أى : صاحب الملك المستقر والعرش الثابت ، وأصل ذلك : أنّ البيت من بيوت الشّعر إنما يثبت ويقوم بالأوتاد ، وقال الأَسْوَد بن يعْفُر :

ولقـد غَنَوْا فِيها بأنعم عيشة ... فى ظـل ملك ثابت الأوتاد

أو : ذو الأبنية العظيمة والجنود الكثيرة ، وقيل : ذو الأوتاد المعروفة ، كان المذنبون يُعَذَّبُون عليها فى عهد فرعون .

وقوم لوط وقوم شعيب أصحاب الشجر الكثيف الملتف أولئك الكفار المتحزبون على الرسل - عليهم السلام - كما تحزّب عليك قومك يا محمد ، ولقد كانوا أعظم من قومك مكانة وأشدّ قوّة وأكثر أموالًا وأولادًا ، فما دفع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء لمّا جاء أمر ربِّك . وفى ذلك يقول سبحانه:

١٤ - (إن كُلٌّ إلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ) :

استئناف جيء به تقريرا لتكذيب الأحزاب على أبلغ وجه ، وتمهيدا لما يعقبه ، ولقد ذكر القرآن تكذيبهم على وجه الإجمال فى الجملة الخبرية (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ) ثم جاء بالجملة الاستثنائية وفصله فيها بأنَّ كل واحد من الأحزاب كذَّب الرسل ، لأنهم إذا كذَّبوا واحدا منهم فقد كذبوهم جميعا ، لأن دعوتهم واحدة ، وفى تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه والتنويع فى تكريره بالجملة الخبرية أولا والاستثنائية ثانيا ومافيها من التوكيد أنواع من المبالغة المسجّلة عليهم استحقاق أشدِّ العقاب وأبلغه ، ولذا قال : (فَحَقَّ عِقَابِ) أى : ثبت ووقع على كلٍّ منهم عقابى الذى كانت تُوجبه جناياتهم ، فأغرق قوم نوح ، وأهلك فرعون وقومه بالغرق أيضا ، وقوم هود بالرِّيح العقيم ، وثمود بالصَّيحة ، وقوم لوط بالحاصب ، وأصحاب الأَيكة بعذاب الظُّلة .

(وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾)

المفردات :

(وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ) : وماينتظرون .

(فَوَاقٍ) الفَوَاقُ : الوقتُ بين الحلبتين .

التفسير

١٥ - (وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِن فَوَاقٍ) :

شروع فى بيان عقاب كفار مكة إثر بيان عقاب أضرابهم ، فإن الكلام السابق مما يوجب ترقب السامع بيانه ، والنظر بمعنى الانتظار ، وبما أن القوم لاينتظرون وقوع

العقاب بهم لكفرهم برسلهم جعلوا منتظرين له لتحقق وقوعه إن بقوا على كفرهم ، وذلك على سبيل المجاز ، والإشارة بهؤلاء إلى كفار مكة للتحقير ،والمراد بالصيحة الواحدة : نفخة البعث والقيامة .

والمعنى : ماينتظر هؤلاء الكفَّار المجرمون من قومك الذين هم أمثال أولئك الطوائف المُهلكة فى الكفر والتكذيب ــ ما ينتظرون ـ شيئا إلَّا صيحة واحدة لاتحتاج إلى تكْرير وتَرْديد ، أو مالها توقُّف مقدار فَواق ناقة ، والفواق : الزمن الذى بين حلبتى الحالب ، ورضعتى الرَّاضع ، وقيل : هل النفخة الأُولى رُوى عن أَبى هريرة قال : حدَّثنا رسول الله ﷺ ونحن فى طائفة من أَصحابه ،وذكر حديثا مطولا جاء فيه : « يأمر الله ــ عز وجل ــ إسرافيل بالنفخة الأُولى فيقول : انفخ نفخة الفزع ،فيفزع أَهل السموات وأَهل الأَرض إلَّا من شاءَ الله ، ويأمره فيمدُّها ويديمها ويُطوِّلها يقول الله ــ تعالى ــ : (وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّالَهَا مِن فَوَاقٍ) ا هـ : ملخصا من القرطبى .

وليس المراد أَن النفخة نفسها عقاب لهم لعمومها للبر والفاجر من جميع الأمم ، بل المراد : أَنه ليس بينهم وبين العذاب الذى يستحقونه إلَّا هذه النفخة إن بقوا واستمروا على كفرهم ، وقد لطف الله بهم ولم يستأْصلهم كما فعل بكفار الأُمم السابقة إكرامًا لنبيه محمد ﷺ وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ »(1) ولأَنه سبق فى علم الله أَنهم سوف يسلمون ، وقد مَنَّ الله عليهم بالإسلام بعد فتح مكة .

(وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾)

المفردات :

(قِطَّنَا) : قسطنا ونصيبنا .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٣٣

التفسير

١٦ - (وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) :

حكاية لما قالوه عند سماعهم تأخير عقابهم إلى الآخرة ، أى : قالوا بطريق الاستهزاء والسخرية : ياربَّنا عجِّل لنا قِطَّنا ونصيبنا من العذاب الذى تتوعدنا به ولا تؤخره إلى يوم الحساب الذى مبدؤُه الصيحة المذكورة .

وتصدير دعائهم بالنداء المذكور للإمعان فى الاستهزاء، كأنَّهم يدعون إلى ذلك بكمال الرغبة والابتهال ، والقائل - على مارُوى عن عطاء - : النَّضر بن الحارث وهو الَّذى قال الله فيه : «سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ»[1] وأبو جهل - على مارُوى عن قتادة - وعلى القولَين فالباقون راضون عن هذه السخرية ، فلذا جئ بضمير الجمع .

والقِط : القطعة من الشىء ، من قَطَّه : إذا قطعه ، ويقال لصحيفة الجائزة[2] : قِطٌّ ؛ لأنَّها قطعة من القرطاس ، وقد فسَّره بها أبو العالية والكلبى ، أى : عجِّل لنا صحيفة أعمالنا لننظر فيها ، وجاء فى رواية أُخرى : أنَّهم أرادوا نصيبهم من الجنَّة ، وروى ذلك عن قتادة وابن جبير ، وذلك أنهم سمعوا رسول الله ﷺ يذكر وعد الله - تعالى - المؤمنين الجنة فقالوا على سبيل الاستهزاء : عجل لنا نصيبنا منها ، لنتنعم به فى الدنيا . قال الفراءُ : القِطُّ فى كلام العرب : الحظ والنصيب .

(ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾)

(١) سورة المعارج : الآية ١

(٢) أى : صحيفة العطاء .

المفـردات :

(الْأَيْدِ) : القوّة والبطش .

(أَوَّابٌ) : رجّاع إلى الله ، أو مُسبِّح .

(الْعَشِيِّ) : من زوال الشمس إلى غروبها ، وقال الراغب : إلى الصباح .

(الْإِشْرَاقِ) : وقت الضحى ، قال ثعلب : شرقت الشمس إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت وصَفَت ، فوقت الإشراق وقت ارتفاعها عن الأُفق ولذا يقال : شَرِقت الشمس ولما تُشْرِق .

(مَحْشُورَةً) : مجموعة ، أو محبوسة فى الهواء .

(شَدَدْنَا مُلْكَهُ) : قوّيناه بكل أسباب القوة .

(الْحِكْمَةَ) : النبوّة ، أو كمال العلم والعمل .

(فَصْلَ الْخِطَابِ) الخطاب هنا : بمعنى الخصام ؛ لاشتماله عليه ، أو لأنه أحد أنواعه ، وفصل الخطاب : التمييز بين حقه وباطله .

التفسـير

١٧ - (اَصْبِرْ عَلَىٰ مَايَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ) :

أى : اصبر يا محمد على مايقوله فيك المشركون من أمثال هذه المقالات الباطلة المؤذية الّتى حكى القرآن عنهم بعضها فيا سبق ، كقولهم : (هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ) ... إلخ واذكر لهم قصّة عبدنا داود - عليه السلام - تعظيما لأمر المعصية فى نفوسهم وتنبيها لهم على قبح ما اجترءوا عليه مما رموا به الرسول ، فإن داود - عليه السلام - مع علو شأنه وإيتائه النبوّة والملك لما ألمّ بما هو خلاف الأَوْلى رجع إلى الله واستغفره مع أنّه لم يفعل معصية ، فما الظن بهؤلاء الكفرة الأذلّين الذين لم يزالوا على أكبر الكبائر مصرين .

قِيل : إنّ داود قضى بين الخصمين بسماع دعوى أحدهما دون سماع الآخر .

وقيل : المعنى اصبر على قولهم واذكر لهم قصص الأنبياء لتكون برهانا على صحة نبوّتك. ذكره القرطبي .

(ذَا الْأَيْدِ) أى : ذا القوة فى الدين والدنيا ، شديد البطش فى مخالفة الله ، كثير الصبر على عبادته وطاعته ، (إِنَّهُ أَوَّابٌ) : إنه كان رجّاعا إلى الله وطاعته فى جميع أحواله وكل أموره وشئونه ، أخرج الدَّيْلمى : عن مجاهد قال : سألت ابن عمر عن الأواب فقال : سألت النبى ﷺ قال : « هــو الرجل يذكر ذنوبه فى الخلاء فيستغفر الله تعالى » قال ابن كثير : ثبت فى الصَّحيحين عن رسول الله أنه قال : « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله – عز وجل – صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وكان يصوم يوما ويفطر يوما ، ولايَفر إذا لَاقَى ، وأنه كان أوَّابا » والتعبير بعبدنا إظهار لشرفه بهذه الإضافة .

١٨ – (إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ) :

استئناف لبيان قصته – عليه السلام – ويجوز أن يكون تعليلا لقوته فى الدين وأوَّابيته إلى الله – عز وجل – وإيثار ذكر لفظ «معـــه» على «اللّام» فى الآية الكريمة لأن تسخير الجبال له لم يكن بطريق التَّفويض بالتَّصرُّف المطلق فيها كتسخير الرِّيح لسليمان بل بطريق الاقتداء فى عبادة الله – تعالى – أى : إنَّا ذلَّلنا له الجبال وسخرناها تسبح معه آخـــر النهار ووقت الضحى ، رُوى عن أم هانىء بنت أبى طالب : أن النبى ﷺ صلَّى صلاة الضحى وقال : « هذه صلاة الإشراق » وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد : عن عطاء الخراسانى أن ابن عباس قال : لم يزل فى نفسى من صلاة الضحى شىء حتى قرأت هذه الآية (يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ) وفى رواية عنه أيضا : ماعرفت صلاة الضحى إلّا بهذه الآية ، وللعلماء فى صـــلاة الضحى كلام طويل والحق سنِّيتها ، وقد ورد فيها – كما قال الشيخ ولى الدين بن العراقى – أحاديث كثيرة مشهورة حتى قال محمد بن جرير الطبرى : بلغت مبلغ التواتر ، وذكر الشافعية : أنها أفضل التطوع بعد الرواتب ، لكن النووى قدَّم عليها صلاة التَّراويح ، وأقلها ركعتان ، لخبر البخارى : عن أبى هريرة

أنه - عليه الصلاة والسلام - أوصاه بهما وألّا يدعهما . وأدنى كمالها: أربع ، فست ، فثمان .

١٩ - (وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ) :

وذلّلنا لداود الطير وسخّرناها مجموعة من كل صنف ومكان (كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ) أى : كل واحد من الجبال والطير لأجل تسبيحه رجّاع إلى التسبيح ، قال ابن عباس : كان داود إذا سبّح جاوبته الجبال، واجتمعت إليه الطير فسبحت معه ، فاجتماعها إليه : حشرها .

فالمعنى : وسخّرنا الطير مجموعة إليه لتسبّح الله معه ، ويجوز أن يكون الضمير فى (كُلٌّ لَّهُ) عائدا على الله - تعالى - لا على داود ، والمعنى : كل من داود والجبال والطير : أوّاب لله - تعالى - ، أى : مسبّح مرجّع للتسبيح .

٢٠ - (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ) :

وقوينا ملك داود بالهيبة ، والنّصرة ، وكثرة الجنود ، ومزيد النّعمة . قال ابن كثير : ذكر ابن جرير : عن عكرمة : عن ابن عباس - رضى الله عنهما - : أن نفرين من بنى إسرائيل استعدى أحدهما على الآخر إلى داود - عليه السلام - أنّه اغتصبه بقرا ، فأنكر الآخر ، ولم يكن للمدعى بيّنة ، فأرجأ أمرهما ، فلما كان الليل أمر داود - عليه السلام - فى المنام بقتل المدّعِى . فلما كان النهار طلبهما وأمر بقتل المدّعِى ، فقال : يانبى الله علام تقتلنى وقد اغتصبنى هذا بقرى ؟ فقال له : إنّ الله - تعالى - أمرنى بقتلك فأنا قاتلك لامحالة ، فقال : والله يانبى الله إن الله لم يأمرك بقتلى لأجل هذا الذى ادعيت عليه ، وإنّى لصادق فيما ادّعيت ، ولكنى كنت قد اغتلت أباه وقتلته ولم يشعر بذلك أحد ، فأمر داود - عليه السلام - بقتله فقُتِل ، قال ابن عباس : فاشتدت هيبته فى بنى إسرائيل وهو الذى يقول الله : (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ) ولقد ذكر هذا الخبر الزمخشرى والآلوسى . (وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ) : النبوّة ، أو كمال العلم وإتقان العمل ، وتطلق الحكمة على إتقان الأمور ، وصاحبها حكيم (وَفَصْلَ الْخِطَاب) أى : الفصل فى الخصومات وعلم القضاء ، ورُوى عن على والشّعبى : أنه البيّنة على من ادّعى واليمين على من أنكر ، ورُوى عن أبى موسى الأشعرى أنّه : أمّا بعد ، ويقول الآلوسى : والّذى يترجح عندى أنّ المراد بفصل الخطاب : علم القضاء

والفصل فى الخصومات ، وهو يتوقَّف على مزيد علم ، ودقَّة فهم وتفهيم ، وفيه تمييز بين الحق والباطل ، وإيتاء الحقوق أربابها ، وهو العدل الذى هو أساس الملك. ويلائمه أتمَّ ملاءمة قوله – تعالى – بعد ذلك : (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ) والله أعلم .

* (وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(وَهَلْ أَتَاكَ) : استفهام يراد منه التعجب والتشويق إلى استماع ما بعده .

(نَبَأُ): خبر .

(الْخَصْمِ): هو فى الأصل مصدر خصمه ، بمعنى خاصمه أى : جادله ، أو غلبه ، ويطلق على المفرد والمثنى والجمع ، والمراد به فى هذه الآية : الجمع .

(تَسَوَّرُواْ الْمِحْرَابَ): تصعدوا سوره وعلوه لينزلوا إلى داود

(الْمِحْرَابَ) فى الأصل : صدر المجلس ، ومنه محراب المسجد؛ لأنه فى صدره ، ويطلق على مكان العبادة .

(فَفَزِعَ مِنْهُمْ) الفزع : انقباض يعترى الإنسان من الشىء المخيف .

(بَغَى بَعْضُنَا) : جار وظلم .

(وَلَا تُشْطِطْ) : ولا تتجاوز العدل وتتخطَّ الحق .

(وَاهْدِنَا) : دُلَّنا وأرشدنا .

(سَوَآءِ الصِّرَاطِ) والمراد : الطريق السوى ، وهو من إضافة الصفة للموصوف .

التفسير

ذكر – سبحانه – فى الآيات السابقة أن نبى الله داود كان عبدا لله ، قويا فى دينه ، توابا ورجاعا إلى ربه ، وأنه – جل ثناؤه – سخر الجبال معه تسبح فى العشى والإشراق وكذلك جمع له الطير كل يقدس الله ويعظمه ، وأنه – تعالى – قوى ملكه وأعطاه القول الحق والمنطق الفصل . ثم أتى – عز علاه – بعد ذلك بتلك القصة العجيبة ، وساقها فى كتابه الكريم المنزل لتدل على أن الكمال المطلق لله وحده ، وقدم لها بما يشوق إليها ويجذب إلى الاستماع والإصغاء لها فقال :

٢١ – (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ الْمِحْرَابَ) :

أى : وهل جاءك يا محمد : نبأُ هؤلاء الخصماء الذين تسلقوا سور محراب داود وعلوه ، ودخلوا عليه وهو متبتل لربه منقطع لعبادة مولاه؟

٢٢ – (إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَآءِ الصِّرَاطِ) :

فما إن دخلوا عليه حتى خاف وفزع منهم ، إذ لم يأتوا البيت من بابه ، ولم يمنعهم حراسه وخدمه من الدخول عليه ، فظن – عليه السلام – أنهم يريدون به شرا ، ويقصدونه بسوء ، ولكنهم بادروه وقالوا له : لا تخف منا فما أردنا لك كيدا ، ولا أضمرنا لك شرا فشأننا وأمرنا أن أحدنا قد بغى وظلم صاحبه ، فجئناك ابتغاء أن تحكم بيننا بالحق والعدل ، ولا تتجاوز الحد فتحيد فى حكمك وتجور فى قضائك ، ونطلب أن ترشدنا وتدلنا على الصراط المستقيم فى تلك القضية التى اختلفنا فيها .

ويبدو أن الذى كلم سيدنا داود وطلب منه الحكم بالعدل والبعد عن الجور والظلم هو ذلك الخصم الذى شعر بمرارة الظلم وفداحته ، فأخرجه ذلك عن مَرْضىِّ القول وجميل النطق .

وكان نبى الله داود - عليه السلام - فى احتمال خطأ الخصوم مثالا ، وقدوة حسنة لكل من يحكم بين الناس من حاكم أو محكم ، فلم يبدر منه - عليه السلام - ما يدل على غضبه من القائل أو استهجانه لما يقول .

(إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾)

المفردات :

(نَعْجَةً) : هى أنثى الضأن ، وتطلق على المرأة مجازا ، لما هى عليه من السكون ، والضعف .

(أَكْفِلْنِيهَا) أى : اجعلنى أكفلها كما أكفل ما تحت يدى ، والمراد ملكنيها ، أو اجعلها كِفلى ، أى : نصيبى .

(وَعَزَّنِى) : غلبنى .

(فِى الْخِطَابِ) : فى المجادلة والمحاجة .

(الْخُلَطَآءِ) : الشركاء .

(فَتَنَّاهُ) : امتحناه وابتليناه .

(فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ) : سأله المغفرة ، وهى الصفح .

(خَرَّ رَاكِعاً) : سقط وهوى ساجدا .

(وَأَنَابَ) : ورجع إلى الله – تعالى – بالتوبة .

(لَزُلْفَىٰ) : لَقُرْبَةً ومَكَانَةً .

(مَآبٍ) : مرجع فى الآخرة .

التفسير

٢٣ – ٢٤ (إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ . قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ...) الآية :

فى الآية السابقة طوى ذلك المظلوم شكايته وأجملها ، وفى هذه الآية بسطها وفصلها فقال : (إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ) اختلف فى المراد من قوله : (أَخِى) أيريد أخاه فى النسب ، أم صاحبه وأخاه فى الإنسانية أم شريكه وخليطه .

وعقّب ذلك بأن سجل على أخيه تجاوزه تلك الأخوة فلم يقنع هذا الأخ بما أفاء الله عليه من نعمة اتسعت وجلت وعظمت حيث كان (لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً) بل ينفس على أخيه ما لديه من تلك النعمة فى أدنى صورها وهى (نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ) يريد أن يستأثر لنفسه ويضمها إلى ملكه بعد أن تملكته الأَثَرة واستسلم لضراوة حب الذات ، وصدق رسولنا ﷺ حيث يقول : (لو أن لابن آدم واديا من ذهب أحب أن يكون له واديان ولا يملأُ فاه إلا التراب ويتوب الله على من تاب) طلب صاحب التسع والتسعين من أخيه الذى ليس له إلا واحدة أن ينزل له عنها ، وأن يعطيه إياها ، وكان صاحب التسع والتسعين أقوى فى سوق حجته والإدلاء بها فى فطانة وبلاغة فغلب شريكه وأخاه وأفحمه فى الجدال والمخاصمة فواساه نبى الله داود –عليه السلام– وسلاه بما جاء فى قوله –تعالى–:(لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ) وبين نبى الله داود وأكد له أن كثيرا من الشركاء والخلطاء يبغى ويظلم بعضهم بعضا ولا ينجو من هذا الخلق الجائر والحيف القاسط إلا الذين آمنوا بربهم وعلموا أنه يحاسبهم

على أعمالهم ويجازيهم عليها ، وهم مع إيمانهم هذا قد عملوا الأعمال المرضية والأفعال الصالحة التى تحفظ عليهم إيمانهم من أن يتسرب إليه وهن ، أو يصيبه ضعف ، وزيادة فى مواساة هذا المظلوم بين له - عليه الصلاة والسلام - أن هؤلاء المؤمنين الصالحين فى قلة قليلة (وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ) أى : ليس شأنك مع خليطك بالأمر الذى لا يماثله أمر ، بل إنه جرى على أكثر ما يفعله الخلطاء من غبن وجور . (وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ) وعلم داود - عليه السلام - بدلائل لاحت له أن الله قد امتحنه وابتلاه وظهرله أنه فعل أمرا كان أولى به وأجدر ألا يفعله ؛ فهو نبى ورسول ، فطلب من الله أن يغفر ذنبه ويصفح عنه وهوى ساجدًا وخاشعًا لعظمة ربه معترفًا بذنبه منيبًا لبارئه وخالقه (فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ) فقبل الله منه - عليه السلام - توبته وإن له عند ربه لمنزلة ومكانة يزلفه بها ويدنيه من رحمته ، وإن له مآبا حسناً ومرجعاً كريما فى الآخرة عند مليك مقتدر .

وقد مضت الآيات السابقة دون ما إشارة إلى الذنب الذى وقع فيه داود فاستغفر ربه منه ، وقد كثر الكلام حول هذا الموضوع ، وتعددت الآثار الواردة فيه ، ومنها :

ما قيل من أن نبى الله داود رأى امرأة أحد جنوده فوقعت من نفسه فأرسل إلى قائده أن يقدم هذا الجندى على التابوت ، وكان من يقدم على التابوت لا يحل له أن يرجع حتى يفتح الله على يديه أو يستشهد ففتح الله على يدى هذا الجندى وسلم من القتل فرده مرة أخرى وثالثة حتى قتل ، فلم يحزن عليه ، وتزوج امرأته .

وهذه الرواية عليها مسحة اليهود الذين دأبوا على النيل من الأنبياء والحط من شأنهم فإن ما ينسب إلى نبى الله داود يقبح أن ينسب إلى بعض المعروفين بالصلاح من آحاد الناس وعامتهم ، فكيف يسوغ أن ينسب إلى أحد الأنبياء كداود - عليه السلام - فعن سعيد بن المسيب والحارث الأعور أن على بن أبى طالب - رضى الله عنه وكرم الله وجهه - قال : « من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة » وهو حد القذف فى حق الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كما روى أنه حُدِّث بذلك عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق فكذب المحدث به وقال : إن كانت القصة

على ما فى كتاب الله فالتماس خلافها كذب واختلاق ، فقال عمر – رضى الله عنه – : لَسَمَاعى هذا الكلام أحبُّ إلىَّ مما طلعت عليه الشمس .

وقيل : إن نبى الله داود خطب على خِطْبة أخيه فآثره أولياء المرأة على الآخر ، وكان ذلك جائزا فى شرعه ، وهذا أيضاً غير لائق بإنسان صاحب مروءة ، فما بالك بالأنبياء صلى الله عليهم وسلم – ؟ .

وقيل : إن داود – عليه السلام – احتجب عن رعيته متبتلا منقطعا لعبادة ربه فعوتب فى ذلك لأنه ترك أمر رعيته دون القيام على شأنهم .

قال الإمام ابن عباس – رضى الله عنهما – : إن داود – عليه السلام – جزأ زمانه أربعة أجزاء : يوماً للعبادة . ويوماً للقضاء ، ويوماً للاشتغال بخواص أموره ، ويوماً يجمع فيه بنى إسرائيل فيعظهم ويبكيهم ، ففاجئوه فى غير يوم القضاء ففزع منهم لأنهم نزلوا عليه من فوق ، وفى يوم الاحتجاب والحرس حوله لا يتركون من يدخل عليه .

وقيل : إن داود – عليه السلام – تعجل ورمى بالظلم ذلك الذى سأل نعجة أخيه إلى نعاجه دون تثبت أو شهادة شهود . ودون أن يسمع قول المدعى عليه .

ولعل هذا القائل يؤكد رأيه فى الآية بقوله – تعالى – عقبها وصية لداود – عليه السلام – : (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ) .

ونحن نرى صحة هذا الرأى. والله أعلم .

وقد التزم المحققون من أئمتنا أن الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – داود وغيره منزهون عن الوقوع فى صغائر الذنوب مبرأون من ذلك ، والتمسوا المحامل الصحيحة لأمثال هذه القصة ، كالذى قيل فى الرأى الأخير أو الذى قبله .

وهذا هو الحق الأبلج والسبيل المستقيم .. وما ذهب إليه هؤلاء المحققون من الأئمة – رضى الله عنهم – هو مـــا تطمئن إليه القلوب وتنشرح له الصدور ، لأن أقصى ما يتصور حدوثه من الأنبياء هو أن يفعلوا خلاف الأولى بمقامهم – عليهم الصلاة والسلام .

(يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ) : استخلفناك على الملك فيها ، أو جعلناك خليفة لمن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحق .

(سَبِيلِ اللهِ) : طريق الله الحق وصراطه المستقيم .

(نَسُواْ يَوْمَ الْحِسَابِ) : من النسيان ، وهو إما أن يكون ضد الذكر والحفظ ، أو يكون بمعنى الترك العمد .

التفسير

٢٦ـ (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ) ... الآية :

نبه الله ـ سبحانه وتعالى ـ نبيَّه داود ـ عليه السلام ـ إلى شرف مسئوليته وخطر وعظم رسالته فقال له : (يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ) الآية ، أى : إنا أقمناك خليفة عنا فى الأرض ، أو جعلناك خليفة فيها لمن كان قبلك من الأنبياء والرسل تسوس وترعى عباد الله فيها ، وتبلغهم ما أنزل إليك من ربك وتقوم على شأنهم ، فاقض بينهم بالحق والعدل ولا تمل أو تحد عن ذلك فتتبع هوى نفسك ، فإن اتباع الهوى والميل إلى شهوة النفس يبعدك عن طريق الله السوى وسبيله المستقيم .

وللتنبيه على شناعة الضلال عن سبيل الله وتناهيه فى القبح قال له عقب ذلك : (إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ الْحِسَابِ) .

أى : أن الذين يزلون عن السبيل الحق وصراطه ويعدلون عنه لهم عذاب شديد الإيلام ، لأنهم نسوا يوم الجزاء والحساب وهو يوم القيامة ، فعصوا الله وتركوا طاعته فكان لهم هذا العذاب الأليم والعقاب الشديد .

هذا ، وتوجيه الله –تعالى– أنبياءه ورسله بالأمر والنهى والإرشاد والنصح لا يقدح أبدا فى عصمتهم ولا ينال من رسالتهم ، فإن النبوة والرسالة لا تنافى دوام التذكير من الله – تعالى – .

ثم بين – سبحانه – أن الحساب والجزاء حق وعدل ونظام يقوم عليه أمر الدنيا وصلاحها واستقامة حالها فقال :

(وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(بَاطِلاً) : عبثا ولعبا دون حكمة .

(فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ النَّارِ) أى : فعذاب يأتيهم من النار .

(كَالْفُجَّارِ) : جمع فاجر ، وهو من ينبعث وينطلق فى المعاصى .

التفسير

٢٧ – (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً) أى : ما أنشأنا السماء والأرض وما فيهما من مخلوقات لا يعلمها ولا يحصيها إلا الله – ما خلقنا ذلك – خلقاً باطلا خاليا

من الغرض الصحيح والحكمة البالغة ، ولكن خلقناها جميعاً للحق المبين ، وذلك بأن أنشأنا فيها نفوسا وأودعناها العقل والتمييز ، ومنحناها التمكين ، وأبعدنا عنها العلل ، وعرضناها للمنافع العظيمة بالتكليف بعد أن أرسلنا إليها الرسل حتى لا تكون لهم حجة على الله ، وأعددنا لها عاقبة وجزاء ، حسب أعمالها . (ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ) أى : خلقها باطلا وعبثا هو ما يظنه هؤلاء الكفار . فى حين أنهم يقرون ويعترفون أن الله هو خالق السموات والأرض مصداقاً لقوله ـ تعالى ـ : (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ) لأن إنكارهم البعث والثواب والعقاب يؤدى إلى أنها خلقت عبثًا ، وأن هذا الخلق قد خلا من الحكمة ، ومن جحد الحكمة فى خلق العالم فقد سفَّه الخالق وظهر منه أنه لا يعرفه ولا يقدره حق قدره ، فكأنه غير مقر بذلك (فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النَّارِ) أى : فعذاب شديد وهلاك يأتيهم من قبل النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت لهم بسبب كفرهم .

٢٨ ـ (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الْأَرْضِ) :

بعد أن قرر ـ جل شأنه ـ أمر البعث والحساب بما مر من نفى خلق العالم عبثاً انتقل ـ سبحانه ـ إلى تقرير ذلك وتحقيقه بإنكار التسوية بين الصالحين والمفسدين ، أى : بل أنجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة الذين يعيثون فى الأرض فسادا ؟ أنقصر وجودهم جميعاً على الحياة الدنيا دون بعث أو حساب ؟ إن التسوية بينهما تنافى الحكمة وتخالف العدل . . . . فيتعين إذًا البعث والجزاء لرفع المصلحين إلى الدرجات العلى ورد المفسدين المضلين إلى الدركات السفلى فى جهنم وساءت مصيرا .

ثم جاء قوله ـ تعالى ـ : (أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) انتقالا إلى ما هو أظهر وأوضح فى استحالة التسوية بين الفريقين المذكورين ؛ أى : بل أنجعل المتقين كأولئك الذين انبعثوا وانطلقوا فى المعاصى لا يردهم وازع من نفوسهم ولا خوف من ربهم ؟ أيسوى الله بينهم دون جزاء حسن لمن اتقى ، وعذاب مقيم لمن كفر وفجر ، إن التسوية بين الفريقين أمر تأباه الحكمة وينافى العدل . (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) .

٢٩ ـ (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُواْ آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُواْ الْأَلْبَابِ) :

أى : هذا القرآن الكريم كتاب أنزلناه إليك كثير الخير عظيم المنافع الدينية

والدنيوية لا تنفك عنه البركة ولا يزايله الخير ، أنزلناه إليك ليتفكر هؤلاء وغيرهم فى آياته ، وما تشتمل عليه من أمر ونهى ، وإرشاد وهداية ، وقصص حق ، ووعد ووعيد إنهم لو تدبروا لوقفوا على ما فيها من المعانى الفائقة ، والتأويلات اللائقة ، والدلالات الواضحة ، ويتعظ ذوو العقول الزاكية الخالصة من شوائب الزيغ والضلال .

فلو تفكر هؤلاء وتذكروا أو استحضروا ما هو مغروس فى فطرهم لعلموا أن البعث والحساب والجزاء حق ، ولكنهم غفلوا وعموا وصموا .

وفى الآية تعريض بأن هؤلاء الكفرة ليسوا من أهل التدبير ولا من أهل العقول .

(وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾)

المفردات :

(وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ) : أعطيناه ومنحناه إياه .

(نِعْمَ الْعَبْدُ) : كلمة (نِعْمَ) تدل على المدح والثناء .

(أَوَّابٌ) : رجَّاع ، أى : كثير الرجوع بالتوبة إلى الله ، أو كثير الرجوع إلى تسبيح الله .

(بِالْعَشِيِّ) العشى : من زوال الشمس عن كبد السماء إلى آخر النهار ، وقيل : إلى آخر الليل .

(الصَّافِنَاتُ) : جمع صافن ، وهو الذى يرفع إحدى يديه ويقف على مقدم حافرها ، وقيل : هو الذى يجمع بين يديه ويسويهما .

(الْجِيَادُ) : جمع جواد ، وهو الذى يسرع فى مشيه إسراعا جيدا .

(حُبَّ الْخَيْرِ) أى : حب الخيل ، لقوله ﷺ : « الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة » .

(فَطَفِقَ مَسْحاً) : فجعل يمسح مسحا .

التفسير

٣٠ - (وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ . . .) :

تشير هذه الآية إلى قصة سليمان بن داود - عليه السلام - .

ومعنى الآية : وأعطينا داود ابنه سليمان وورثناه إياه ، وكان سليمان حقيقًا بتلك المنزلة وجديرًا بهذه الوراثة المباركة ، فقد أثنى عليه ربه فقال : (نِعْمَ الْعَبْدُ) ، فوصَفَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ ، والْعبودِيَّة من أشرف الصفات وأسمى النعوت ، فقد نعت بها سيد الخلق رسولنا ﷺ قال - تعالى - : (سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ)[1] ، وقال ﷺ : « أفلا أكون عبدًا شكورًا » كما وصف سليمان بأنه - عليه السلام - كان كثير الرجوع إلى ربه يتوب إليه مما عساه أن يكون قد بدر منه من فعل غير الأولى ، أو أنه كان يكثر الرجوع إلى تسبيح الله وتنزيهه .

٣١ - (إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِىِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ) :

أى : اذكر يا محمد ما كان من أمر سليمان فى استعراضه الخيل فى منتصف النهار ، تلك الخيل التى وصفت بالصفون والجودة فجمعت بين وصفين محمودين ، فإذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة فى موقفها ، وإذا جرت كانت سراعًا خفافًا فى جريها .

---

(١) سورة الإسراء : من الآية ١

وقد عرضت على سليمان -عليه السلام - ليعلم ويقف على مدى قدرتها وقوتها وحسن تدريبها على خوض المعارك التي يتطلبها صاحب رسالة وملك، فيغزو بها أعداءه ويؤمن حدوده ويبعث الرعب فى قلوب من تحدثهم أنفسهم أن يعتدوا على ملكه .

٣٢- (فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي) أى : فقال : إنى آثرت حب الخير بسبب ما هو مذكور ومسطر فى كتاب ربِّى وهو التوراة من مدح ربط الخيل وإمساكها على الثغور والحدود فى مواجهة الأعداء فذكر - عليه السلام- أنه لا يحبها لأجل زينة الدنيا وزخرفها ونصيب النفس وحظها وشهواتها وإنما أحبها لأمر الله - تعالى - وإعزاز دينه .

(حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ) أى : حتى غابت عن بصره - عليه السلام - .

٣٣- (رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ) :

أمر سليمان - عليه السلام - الرائضين للخيل والقائمين على شأنها أن يردوها ويعيدوها إليه ، فلما عادت جعل يمسح سوقها وأعناقها تشريفًا وإعزازًا لها وشفقة عليها وإظهارًا لمكانتها ، إذ هى من أعظم ما يساعد المجاهد ويعاونه فى دفع عدوه والانتصار عليه ، وقد أبدى - عليه السلام - كمال التواضع فى مباشرة ذلك الأمر بنفسه . وهكذا يضرب الأنبياء الأمثال لأقوامهم وأتباعهم ليتأسوا بهم .

(وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(فَتَنَّا) : ابتلينا وامتحنا .

(جَسَدًا) : جسد إنسان .

(أَنَابَ) : رجع إلى ربه .

التفسير

٣٤ - (وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ . . .) الآية :

خير ما ورد فى تفسير هـذه القصة ما قاله رسولنا محمد ﷺ حيث قال : « قال سليمان : لأطوفن الليـلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله ، ولم يقل : إن شاء الله ، فطاف عليهن فلم يحمل إلا امرأة جاءت بشقِّ رجل ، والذى نفس محمد بيده لو قال : إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون » فكانت هذه فتنة سليمان إذ أنه لم يقل : إن شاء الله ، وهذا هو الصحيح الذى جاء به الصادق المصدوق - عليه الصلاة والسلام - : أخرجه البخارى وغيره عن أبى هريرة .

أما ماورد من أنه ولد له ابن فقالت الجن والشياطين : إن عاش له ولد لنلقين منه مالقينا من أبيه من البلاء ، فأشفق سليمان - عليه السلام - منهم ، فجعل ابنه وظئره (حاضنته) فى السحاب من حيث لا يعلمون فلم يشعر إلا وقد ألقى هذا الابن على كرسيه ميتا ، تنبيها إلى أن الحذر لا ينجى من القدر ، وعوقب على ترك التوكل على الله ، فهذا خبر غير موثوق به ولا تطمئن إليه النفس ؛ لأن تسخير الريح كان بعد الفتنة .

(وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ) :

أى : وقدم هذا الشق إلى سليمان وطرح على كرسيه فألقى الله فى روعه وقذف فى قلبه أنه قد فتن وامتحن وابتلى ووقف على سبب ذلك ،فكان أن أناب إلى الله ورجع إلى ربه تائبا مستغفرا عن هذه الزلة التى فرطت منه ، وهى أنه قد نسى أن يتجه إلى ربه فى منحه تلك الذرية التى تعينه على الجهاد فى سبيل الله « بأن يقول : إن شاء الله » .

وجاء العطف (بثم) فى قوله -تعالى- : (ثُمَّ أَنَابَ) التى تدل على التراخى والبعد لأنه لم يقع الاستغفار عقب حدوث الزلة ، فإن سليمان -عليه السلام - لم يعلم الداعى إلى الاستغفار والإنابة عقب ما وقع منه من ترك قوله : إن شاء الله إلا بعد أن وضعت له إحدى نسائه شق رجل ،وكان بين طوافه على نسائه وتركه ذكر المشيئة وبين إلقاء الشق على كرسيه زمن طويل ، فناسب أن يعطف بثم ، وهذا بخلاف قصة داود- عليه السلام -

فقد جاء العطف فيها بالفاء التى تدل على الفورية وسرعة المبادرة ، لأنه علم أن الله قد فتنه وابتلاه ، ومن فور علمه استغفر وأناب لأن اللائق فى هذا المقام المسارعة إلى الإنابة .

(قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(لَا يَنبَغِى) : لايتيسر .

(مِن بَعْدِى) : من دونى .

التفسير

بين – سبحانه – إنابة سليمان ورجوعه إلى ربه بقوله : (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكاً لَّا يَنبَغِى لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِى) دعا سليمان ربه أن يغفر له ويصفح عنه ولا يعاقبه أو يحاسبه على مابدر منه من ترك ماهو أولى به أن يفعله ، وقدم – عليه السلام – الاستغفار – وإن كان مقصوداً لذاته – ليكون وسيلة إلى طلب الملك ، فمن كمال العبودية أن يقدم الإنسان الاعتراف بالذنب والاستغفار منه ليمحى أثره ويكون دعاؤه أرجى للقبول ، ثم طلب – عليه السلام – من ربه أن يمنحه ملكا عظيما لا يدانيه ملك أحد غيره ؛ ولا يسلب منه ويعطى لسواه ، وقد طلب سليمان ذلك من ربه واستوهبه إياه ، لتكون استجابة الله له أمارة على قبول إنابته وعلامة على غفران الله له ماتركه من النطق بقوله : إن شاء الله عندما أحب أن تأتى نساؤه بفرسان يجاهدون فى سبيل الله كما مر بيانه .

وقيل : إن سليمان – عليه السلام – لم يطلب من ربه هذا الطلب إلا بعد أن أمره الله بطلبه لأنه – سبحانه – علم أنه لايستطيع أن يضطلع بهذا الملك ويقوم على تصريف

أمره وسياسته وتدبير شأنه أحد غير سليمان ،فكان أن امتثل سليمان وطلبه من ربه فاستجاب له ومنحه إياه .

وجاء قوله ــ تعالى ــ : (إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ) اعترافا مؤكدا من سليمان بأن الله ــ جل علاه ــ هو وحده صاحب العطاء الواسع الكثير وليس ذلك لأحد سواه .

(فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ) : فذللناها ويسرناها له .

(رُخَآءً) : لينة طيبة لا تتزعزع ولا تضطرب ، وقيل : طيعة له لاتمتنع عليه .

(حَيْثُ أَصَابَ) : حيث قصد وأراد .

(الْأَصْفَادِ) : جمع صفد ، وهو ما يُوثَق به الأسير من قيد أو غل .

(مُقَرَّنِينَ) : مجموعين فى قيد واحد يضمهم .

(فَامْنُنْ) : فأنعم على من شئت .

(أَمْسِكْ) : احبس وامنع من شئت .

التفسير

٣٦ــ (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ) :

فى هذه الآية الكريمة دلالة على أنه ــ سبحانه ــ استجاب لسليمان فور الفراغ من

دعائه فجاء قوله ـ تعالى ـ : (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ) بالفاء التى تدل على الترتيب والتعقيب ، أى أن الله ـ تعالى ـ ذلل ويسر له الريح فور دعائه تطيع أمره ولا تتأبى عليه فتسير وتجرى بأمره حيث يريد ويقصد سيرا لينا لا اضطراب فيه ولا اهتزاز وذلك مع شدة سرعتها ، وعصفها فى جريها ، فقد جمع الله له فيها بين اللين وسرعة الجرى ، وهما لايجتمعان غالبا ؛ لأن السير الشديد يكون معه الاضطراب والتزعزع عادة .

٣٧ ، ٣٨ ـ (وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى الْأَصْفَادِ) :

وسخـــر الله له الشياطين وهم مردة الجن وعتاتهم سخر له بعضهم فى أعماله ، فبنوا له ماشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات . وسخر له بعضا آخر يغوص فى البحار يجلبون له ما استتر فيها من كريم ماتحتويه من اللؤلؤ والمرجان ، وسلطه الله على من يرى أنه مدمِّر ومؤذ فقرن وجمع بعضهم ببعض فى أصفاد وقيود ، أو أحكم قيد كل واحد منهم على حدة اتقاء شرهم ومنعا لضررهم .

٣٩ ـ (هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) :

وقال له ربه ـ عقب تسخير الشياطين له تفضلا عليه ـ : هذا عطاؤنا ومنحتنا إليك أطلقنا فيه يديك ، فامنح من شئت وامنع من أردت ، فلا نسألك عن ذلك ولا نحاسبك عليه ، أنت فى خيار من أمر هؤلاء الشياطين فأمسك من شئت فى خدمتك ، وقيد من أردت من المردة فى أصفادك ، وأطلق سراح من تحب ، فلا عتاب ولا تثريب عليك ، يقول الله ذلك وهو يعلم حسن تصرفه فيما فوضه إليه .

٤٠ ـ (وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ) :

أى : وإن لسليمان عندنا لقربى ، وكرامة عظيمة مع ما أنعمنا به عليه من الملك العظيم ، وله حسن مرجع ومأوى فى الجنة ، فله عز الدنيا وسعادة الآخرة ؛ لاستحقاقه ذلك عند ربه .

(وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(بِنُصْبٍ) : بمشقة وتعب .

(وَعَذَابٍ) : وضر وألم .

(ارْكُضْ بِرِجْلِكَ) الركض : الدفع القوى ، أى : ادفع واضرب برجلك الأرض ضربا شديدا قويا .

(وَذِكْرَىٰ) : وتنبيها وتذكيرا .

(لِأُولِى الْأَلْبَابِ) : لأصحاب العقول الرشيدة .

(ضِغْثًا) : حزمة من حشيش أو نحوه .

(وَلَا تَحْنَثْ) الحنث : الخلف فى الحلف وعدم الوفاء به .

التفسير

٤١ ـ (وَاذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ) :

أى : واذكر ـ يامحمد ـ قصة أيوب وابتلاء الله له بالمرض والمشقة والألم ، ليكون ـ عليه السلام ـ مثالا كريما يحتذيه ويتأسى به كل من تصيبه مصيبة فى نفسه أو ولده أو ماله لينال جزاء الصابرين الذين وعدهم الله بالجزاء العظيم بقوله ـ تعالى ـ : « أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ

صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ »[1] .

أو اذكر قصته – عليه السلام– فى نفسك لتكون عونا لك على الصبر على ماتلاقيه وتكابده من هؤلاء الضالين المعاندين المشركين – اذكر – أن الشيطان قد وسوس له ليثنيه عن يقينه وينال من طمأنينة قلبه بما يلح فى الوسوسة ودعـوة أيوب إلى القنوط واليأس من رحمة ربه ، وكان هذا الأمر قاسيا وشديدا على أيوب مع مرضه وعلته ، فضلا عن تسلط الشيطان على أتباعه حتى فتن بعضهم فى دينه ، ورده إلى الكفر بعد أن غرس فى نفوسهم أن الأنبياء لايبتلون ولا يمرضون ، وأن أيوب مادام قد أصابه المرض ومسه الضر فليس بنبي ولا رسول ، كما تسلط ذلك اللعين على آخرين حتى قالوا : ما ابتلى الله أيوب إلا لذنب أصاب أو جريمة اقترف ، فكان أيوب يعانى من مشقة تسلط الشيطان عليه بالوسوسة بالقنوط من رحمة الله ، كما يعانى ويتألم لفتنة أتباعه وتفرقهم عنه وتشككهم فى رسالته .

وكان أيوب – عليه السلام – فى قمة الأدب مع ربه فجاء هنا حكاية عنه قوله – تعالى – : (أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ) وجاء فى سورة الأنبياء قوله – تعالى – : (أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)[2] فلم يزد – عليه السلام – أن نادى ربه وبسط شكاته فحسب ، وفوض أمره إلى ربه راضيا بما يقضيه فيه ، وما يقدّر عليه ، فلطف به – سبحانه – واستجاب إلى ما تتوق إليه نفسه ويطمئن به قلبه من أن يذهب مرضه الذى أتعبه ونال من جسمه وحط من قوته ، وأن يصرف الشيطان عنه وإن كان لاينال من عقيدة الأنبياء ولا من عباد الله الصالحين .

٤٢ – (ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ) :

أمره – تعالى – أن يضرب الأرض برجله ضربا قويا بقوله : (ارْكُضْ بِرِجْلِكَ) فامتثل وضربها فنبعت عين ، فقال له – سبحانه – : (هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ) فاغتسل – عليه السلام – فذهب سقمه وصح بدنه وشرب فأطفأ ظمأه .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٥٧

(٢) سورة الأنبياء ، من الآية : ٨٣

٤٣ ـ (وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) :

وبعد أن اكتملت له العافية من الله عليه وهب له ما كان قد تفرق عنه من ولده ، وبارك له فيهم فضاعفهم له وأعطاه كثير المال وجليل الخير ، وكل ذلك كان من رحمة الله وفضله عليه إذ سلط الله عليه البلاء فصبر ، ثم أزال عنه مانزل به ووصله بالآلاء والنعماء ، وذلك تنبيها لذوى العقول الرشيدة والبصائر النافذة والقلوب السليمة على أن من صبر ظفر ونال الجزاء الحسن .

٤٤ ـ (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) :

أبطأت امرأة أيوب ـ عليه السلام ـ وهو فى مسيس الحاجة إليها . فقد أنهكته العلة وقعد به المرض وألح عليه الشيطان فى نفسه وتابعيه .فأقسم إن شفاه الله وأبرأه ليضربنّها مائة جلدة . وكان البرء والشفاء والمنة العظيمة بالعافية والرضا من ربه . فكيف يضربها وهى التى رافقته فى رحلة مرضه وقاست ماقاست من حزنها عليه . واعتصار قلبها لما كان يكابده من العلة وعانت من تفرق الولد والأهل وذهاب المال .وأيوب ـ عليه السلام ـ يعرف لها ماقامت به نحوه وما عانت من أجله ، ولهذا كان يود ويرجو مخرجا من هذه اليمين التى التزم أمام ربه أن يبر ولايحنث فيها ، فكان أن جعل الله له مخرجا منه يرضى ربه ولا يضر زوجه ، فقال له :(وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ) أمره ـ جل جلاله ـ أن يتحلل من قسمه بأهون شىء عليه وعليها ، وذلك بأن يعمد إلى حزمة من حشيش أو ريحان أو نحوهما تضم مائة عود فيضربها بها ضربة واحدة ، ويكون بذلك قد وفى بقسمه ولم يؤذ زوجه الوفية له فى مرضه .

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) :

إنا علمنا أيوب صابرا محتسبا حابسا نفسه على إرادة ربه ، لم يستطع الشيطان أن يزعزع ثقته بربه أو يقلل من اعتماده عليه ـ سبحانه .

وقد يقال : كيف يوصف أيوب بالصبر وقد شكا ؟

والجواب : أن أيوب شكا إلى الله ولم يشك لأحد سواه ، وأن أيوب لجأ إلى الحبيب من العدو ، فضلا على أن الشكوى إلى الله ليست منقصة ولا نزولا بالهمة ، فإن الله ـ سبحانه ـ يحب أن يُدعى ويُسأل ، ونبي الله يعقوب خاطب ربه وشكا إليه : « قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى اللهِ »[1] وهذا لايقدح فى الصبر .

(نِعْمَ الْعَبْدُ) : أيوب فقد تناهى فى الكمالات وتسامى فى الدرجات (إِنَّهُ أَوَّابٌ) : أى : إنه رجاع إلى ربه منيب إليه ، لسانه رطب بذكره ، وقلبه عامر بالتفكر فيه والتعظيم له والخوف منه .

(وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾)

المفـردات :

(أُوْلِى الْأَيْدِى) : أصحاب الأعمال العظيمة فى طاعة الله .

(وَالْأَبْصَارِ) أى : والبصائر النافذة فى معرفته .

(أَخْلَصْنَاهُمْ) : جعلناهم خالصين .

---

(١) سورة يوسف من الآية : ٨٦

(بِخَالِصَةٍ) : بخصلة وصفة خالصة لا شوب فيها ولا كدورة هي :

(ذِكْرَى الدَّارِ) : تذكر الدار الآخرة ،أو التذكير بها ، أو الثناء الجميل عليه فى الدنيا .

(الْمُصْطَفَيْنَ) : جمع مصطفى ، وهو المختار من بنى جنسه .

التفسير

٤٥ - (وَاذْكُرْ عِبَادَنَآ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ) :

أضافهم إليه - سبحانه - بالعبودية فقال : (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا) وذلك تشريف لهم وإعلاء لشأنهم .

واذكر أيُّهَا - الرَّسُول - لقومك أو تذكر أنت إبراهيم وإسحاق ويعقوب - اذكر هؤلاء .

(أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ) أى : أصحاب الأعمال الطيبة والبصائر النيرة ، فقد استعمل - سبحانه - حواسهم فى طاعته : فألسنتهم رطبة بذكره ، وجوارحهم مشغولة بعبادته ، فكان الله سمعهم الذى يسمعون به ، وبصرهم الذى يبصرون به ، وذلك مع أفئدة بصيرة ، وعقول رشيدة ، وقلوب سليمة يملؤها ويعمرها التفكير فى الله - سبحانه وتعالى - فقد جمع الله لهم كمال العمل له ، مع عظيم معرفته .

وجاء التعبير عن الأعمال الظاهرة بالأيدى ، لأن أكثر الأعمال تباشر بها فيقال : هذا مما عملت أيديهم ، أو هذا ما قدمت يداه ، وإن كان هذا العمل لا يتأتى فيه المباشرة بالأيدى .

٤٦ - (إِنَّآ أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ) :

أى : إن الله قد أخلصهم له ونقاهم من كل شوب وكدورة تنال من مكانتهم ، وجملهم بتلك الخصلة الطيبة والخلة الحسنة ، وهى تذكرهم الدار الآخرة ، يعملون لها ويسعون من أجلها ، وكان نصيبهم من الدنيا هو عمل الخير وخير العمل الذى يقدمون به على ربهم ؛

ويقبلون بصحبته إلى مولاهم ، أو أخلصهم وميزهم بتذكرهم الدار الآخرة ، أو أنه – تعالى – أبقى لهم الثناء الحميد فى الدنيا ، وتقبل دعاء إبراهيم – عليه السلام – حيث قال : « وَاجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الْآخِرِينَ »[1] .

أو أنهم يذكِّرون الناس بالآخرة ويحثونهم على التجافى عن الدنيا والبعد عن الإغراق فى طلبها .

٤٧ – (وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ) :

أى : وإن هؤلاء الأنبياء – عليهم السلام – عند الله لمن الذين اجتباهم واختارهم – سبحانه – فكانوا من صفوة وخيار رسله وأفضل أنبيائه .

(وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾)

المفـردات :

(هَٰذَا ذِكْرٌ) : شرف عظيم وذكر جميل يذكرون به دائماً .

(جَنَّاتِ عَدْنٍ) : بساتين إقامة دائمة .

(مُتَّكِئِينَ) : مسندين ظهورهم أو جنوبهم إلى شىء معتمدين عليه فى حال قعودهم .

---

(١) سورة الشعراء ، الآية : ٨٤

التفسير

٤٨ - (وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ) :

واذكر - يا محمد - أو تذكر أنت هؤلاء الرسل الذين صبروا وصابروا وأبلوا بلاء حسنا فى أداء رسالة ربهم ، وتحملوا سفه قومهم وجهلهم حتى يُهتدى بهم ويكونوا مُثُلًا صالحة يتأسى بهم سواهم .

وكلهم من الصفوة الكرام البررة الذين انتخبهم ربهم واختارهم .

وقد أفرد - سبحانه - إسماعيل وفصل ذكره عن ذكر أبيه إبراهيم وأخيه إسحٰق للإشعار بعراقته وأصالته فى الصبر الذى هو المراد فقد صبر إسماعيل على الذبح لولا أن الله فداه بذِبْحٍ عظيم .

والحكمة من ذكر أو تذكر هؤلاء تبدو فيما يأتى :

١ - أما إبراهيم - عليه السلام - فقد صبر وصابر على إيذاء قومه له فلم يداهنهم على كفرهم ، أو تلن قناته أوتضعف عزيمته عندما عزموا على تحريقه وإلقائه فى النار ثم ألقوه فيها فكانت عليه بردا وسلامًا .

٢ - وأما إسحاق - عليه السلام - فقد صبر على طمع قومه وجشعهم فكان يحفر الآبار ليسقى دوابه ويروى زرعه ، فيأتى هؤلاء العصاة أكلة السحت والحرام فيأخذونها منه فيتركها لهم ويحفر غيرها وهكذا ، ثم ما عاناه من تقدم السن ووهن العظم وفقد البصر .

٣ - وأما يعقوب - عليه السلام - فقد تأسى عن فقد أحب أبنائه إليه وأدناهم إلى قلبه ، فكان منه الصبر الجميل ، والاستعانة بالله على ما أصابه قال - تعالى - : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ)(١) ثم ابتلى بأخذ ابنه الثانى شقيق يوسف بدعوى أنه سرق فاشتعل حزنه وتضاعف ألمه على يوسف ، ولكنه كان كبير الرجاء عظيم الأمل فى رحمة

---

(١) سورة يوسف ، من الآية : ١٨

ربه أن يرد الله إليه ابنيه قال ـ تعالى ـ : (عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً)[١] ولم يتسرب اليأس والقنوط إلى قلبه بل كان ينهى أولاده عنه ، قال ـ تعالى ـ : (وَلَا تَيْئَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ)[٢].

هذه المكابدة أذهبت بصر يعقوب (وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ)[٣] إلى أن جمع الله بينه وبين أولاده ورد عليه بصره .

٤ ـ وأما إسماعيل ـ عليه السلام ـ فقد صبر على الذبح وقال لأبيه : (سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ)[٤] كما كان مثالا للطاعة والبر بأبيه .

٥ ـ وأما اليسع ـ عليه السلام ـ فقد استخلفه إلياس ـ عليه السلام ـ على بنى إسرائيل فصبر على جهلهم وسفاهتهم وظلمهم وكفرهم . ثم كان جزاء الله له أن اصطفاه رسولا .

٦ ـ وأما ذو الكفل ـ عليه السلام ـ فهو عند الجمهور نبي مرسل وكان من شأنه أنه جابه الظلم وتصدى لهؤلاء الفجرة الذين طاردوا عددًا كبيرًا من أنبياء بنى إسرائيل وتعقبوهم ليقتلوهم فكفلهم ذو الكفل وآواهم غير مبال بعسف الظالمين وكيدهم ؛ كذا قيل ، ولعله اسم له والأسماء لا تعلل .

٤٩ ـ (هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ) :

(هذا) : إشارة إلى ما تقدم من الآيات الناطقة بمحاسن هؤلاء الأنبياء والدالة على مناقبهم العظيمة (ذِكْرٌ) أى :شرف لهم وذكر جميل يذكرون به أبدًا ، أو هو إشارة إلى القرآن لقوله ـ تعالى ـ : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ)[٥] وهو مشتمل على أنباء الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ هذا ذكر مَن مضى من الأنبياء .

(وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ) :

---

(١) سورة يوسف ، من الآية : ٨٣

(٢) سورة يوسف ، من الآية : ٨٧

(٣) سورة يوسف ، من الآية : ٨٤

(٤) سورة الصافات ، من الآية : ١٠٢

(٥) سورة الحجر : من الآية : ٩

بعد أن بين - سبحانه - فى الآيات السابقة أن الحكمة تقتضى عدم التسوية بين المتقين والفجار ، جاءت هذه الجملة موضحة نعيم المتقين فى الآخرة ، وسيأتى فى الآية التالية بيان هذا النعيم .

٥٠ - (جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ) أى : بساتين إقامة فتحت لهم فيها الأبواب تهيئة وإعدادًا وإكراماً لهم يدخلونها على أعز حال وأجمل هيئة (حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)[1] .

٥١ - (مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ) :

أى : معتمدين فيها على أرائك ، أو وسائد من ديباج وإستبرق والأرائك : السرر المنجدة المزينة ، وهذه هى جلسة المطمئن الآمن والفرح المسرور ، وهم فى هذه الحالة من الحبور يطلبون من ربهم أن يمدهم ويعطيهم من ألوان الفاكهة وأصناف الشراب فيستجيب لهم الله ويعطيهم ما طلبوا (لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ)[2]

* (وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾)

المفردات :

(قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ) الطرف : العين . ولا يجمع كما هنا لأنه فى الأصل مصدر ، ومن استعماله مفردًا مع الجمع قوله - تعالى - : « لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ » . والقصر : الحبس ، أى : حابسات عيونهن على أزواجهن ، وسيأتى مزيد بيان له فى التفسير .

(١) سورة الزمر ، من الآية : ٧٣

(٢) سورة يس ، الآية : ٥٧

(أَتْرَابٌ) أى : لِدَات على سِنٍّ واحدة ، تشبيهًا لهن فى التساوى والتماثل بالترائب التى هى ضلوع الصدر ، وهى جمع ترب ، وسيأْتى لذلك مزيد بيان .

(مَالَهُ مِن نَّفَادٍ) أى : ليس له انقطاع أبدا .

التفسير

٥٢ - (وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ) :

لا يزال الكلام متصلًا فى نعيم المتقين ، فهذه الآية تبين أن لهؤلاء المتقين فى الجنة زوجات قاصرات أبصارهن على أزواجهن فلا ينظرن إلى سواهم ، أو قاصرات أبصار أزواجهن عليهن ، فلا ينظرون إلى سواهن لجمالهن الفائق ، وهؤلاء الزوجات أتراب أى : متساويات فى السن ، فكلهن شباب وليس بينهن عجوز ، وذلك يستدعى محبة بعضهن لبعض ، وفى ذلك راحة لأزواجهن ، فإن تباغض الضرائر بسبب الفوارق فى الحسن بينهن ينغص عيش الأزواج ، فلذا تشابهن فى الحسن والطباع ، حتى تصفو الحياة فى الجنة ، وقيل : إن التساوى بينهن وبين أزواجهن ، وذلك أشمل وأكمل ، وأبعث على قصر الزوجات أبصارهن على أزواجهن .

وجاء فى وصفهن فى سورة الصافات قوله -تعالى- : (وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ . كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ)[1] . ومعنى (عِين) : واسعات العيون حسانها ، ومفرده عيناء ، وقد شبهن ببيض النعامة تكنها النعامة بريشها من الريح والغبار ، فلونها أبيض فى صفرة ، وهو أحسن ألوان النساء[2] ، وجاء فى وصفهن أنهن فى سن ثلاث وثلاثين سنة ، والآية فى الزوجات الآدميات كما قال ابن عباس :

---

(١) سورة الصافات ، الآيتان : ٤٨ - ٤٩

(٢) وقال ابن عباس وغيره : شبهن ببطن البيض قبل أن يقشر وتمسه الأيدى .

٥٣ - (هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ) :

أى : هذا الجزاءُ الذى وعدتم به - أيها المتقون - فى يوم الحساب ، فاللام فى قوله : (لِيَوْمِ الْحِسَابِ) بمعنى فى ، ويصح أن تكون للتعليل ، أى : هذا ما وعدتم به لأجل يوم الحساب .

٥٤ - (إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ) :

إن هذا الذى ذكر من ألوان النعم وأصناف الكرم لرزقنا الذى أعطيناكموه ماله من انقطاع أبدًا ، وفيه دليل على أن نعيم الجنة أبدى لانهاية له .

(هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾)

المفردات :

(لِلطَّاغِينَ) : المراد بهم الكفار .

(لَشَرَّ مَآبٍ) : لقبح مرجع .

(الْمِهَادُ) : الفراش وزنا ومعنى .

(حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ) : الحميم : الماءُ الشديد الحرارة ، والغساق : عصارة أهل النار ، وعن ابن عباس أنه الزمهرير ، أخرجه عنه ابن جرير وابن المنذر .

(وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ) : وعذاب آخر من مثله أصناف .

(فَوْجٌ) : جمع كثير .

(مُقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ) أى : داخل معكم .

(لَامَرْحَبًا بِهِمْ) : دعاءٌ من المتبوعين على أتباعهم .

(صَالُواْ النَّارِ) أى : داخلون فيها .

(فَبِئْسَ الْقَرَارُ) : فبئس المقر جهنم .

التفسير

٥٥ ، ٥٦ - (هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ) :

لما ذكر الله فيما تقدم نعيم المتقين فى الجنة ، عقبه بذكر ما للطاغين من سوء المصير ، ولفظ « هذَا » خبر لمبتدأ محذوف ، أى : الأمر هذا ، أو مبتدأ خبره محذوف أى : هذا كما ذكر . قال ابن الأنبارى : « هذَا » وقف حسن ، ثم تبتدئ : وإن للطاغين ، وهم الذين كذبوا الرسل ، وقال الجبائى - من المعتزلة - : المراد بهم أصحاب الكبائر ، سواء أكانوا كفارًا أم لا ، وأهل السنة على أن هذه الآيات فى الكفار ، وهو رأى ابن عباس .

ومعنى الآيتين : الأمر هذا الذى ذكر فى جزاء المتقين ، وإن للطغاة الذين كذبوا الرسل لَشَرَّ مرجع يثوبون إليه : جهنم يدخلونها ويقاسون لهيبها ، فبئس الفراش جهنم .

٥٧ ، ٥٨ - (هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ) :

الحميم : الماء الشديد الحرارة ، قال - تعالى - : (وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ)[1] .
والغساق : صديد أهل النار يسيل من أجسادهم ، وقيل : الغساق : عذاب لايعلمه إلَّاالله ، وقيل : هو البارد المنتن والمقصود من لفظ : « آخَرُ » عذاب الزمهرير كما فسره ابن مسعود . ولكن ابن عباس يفسر الغسَّاق بالزمهرير ، وعليه يكون معنى : « وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ » : وعذاب آخر من شكل الغساق أو من شكل ماذكر أصناف .

---

(١) سورة محمد : من آية ١٥

والمعنى : العذاب هذا . فليذوقوه ، منه حميم شديد الحرارة ، ومنه غساق صديد أهل النار ، أو الزمهرير ولهم عذاب آخر من شكل هذا العذاب فى الشدة والفظاعة أصناف وأجناس .

٥٩ ، ٦٠ - (هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ * قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ) :

الاقتحام : الدخول فى شدة ، والآيتان حكاية لما يقوله أهل النار بعضهم لبعض ، من التلاعن والتكذيب . كما قال -تعالى- : « كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا »[1]

تقول طائفة الرؤساء التى تدخل قبل طائفة الأتباع - تقول - إذا لحقوا بهم مع الخزنة من الزبانية : هذا فوج داخل معكم لا مرحبًا[2] بهم ، إنهم داخلون النار معنا لأنهم كفروا مثلنا ، فيرد الأتباع قائلين لرؤسائهم : بل أنتم أحق بما قلتم فلا مرحبًا بكم . لأنكم ضالون مضلون ، فأنتم قدمتم العذاب لنا بإغوائنا وإغرائنا على العقائد الزائغة ، والأعمال القبيحة ، فبئس المقر والمنزل جهنم التى نصلاها سويا .

٦١ - (قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ) :

أى : يقول الأتباع أيضًا : يا ربنا من تسبب فى عذابنا وقدمه إلينا فزده فى النار عذابًا مضاعفًا ، وقد جاء مثل ذلك فى سورة الأعراف ، وذلك فى قوله تعالى : (قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ)[3] .

---

(١) سورة الأعراف : من الآية ٣٨

(٢) لا سعة لهم ولا نريد لقاءهم ، والرحب -بضم الراء وفتحها- : السعة ، كرحبا ، تقول : مرحبا أو رحبا وأهلا ، أى : أتيت سعة وأهلا فاستأنس ولا تستوحش ، بخلاف (لا مرحبا) فإنها على العكس ، وهى تشير إلى أنهم لا يريدون لقاءهم فصدورهم لا تتسع لهم ، لأنهم صالوا النار مثلهم فلا منفعة فى لقائهم تقتضى الترحيب بهم .

(٣) سورة الأعراف ، من الآية : ٣٨

(وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾)

المفردات :

(سِخْرِيًّا) : مسخورًا ومُسْتَهزأً بهم .

(زَاغَتْ) : مالت .

(تَخَاصُمُ) أى : تنازع .

التفسير

٦٢ - (وَقَالُواْ مَالَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ) :

أى : وقال الطاغون الكافرون بعضهم لبعض على سبيل التعجب والتحسر : ماذا جرى لنا ، حيث لا نرى معنا فى النار رجالًا كنا نعدهم فى الدنيا من الأشرار الأراذل الذين لا خير فيهم ولا منفعة لهم ، يعنون بذلك فقراء المؤمنين ، وكانوا يسترذلونهم ويسخرون منهم لفقرهم ومخالفتهم لهم فى الدين .

واستظهر بعضهم أن الضمير فى « قَالُوا » عائد على أتباع الرؤساء ، فإن الكلام متصل بمقالهم عن الرؤساء ، وكانوا - أيضًا - يسخرون من فقراء المؤمنين تبعًا لرؤسائهم .

وقيل : إن الضمير راجع إلى صناديد قريش : كأبى جهل وأمية بن خلف وغيرهما ، والرجال الذين كانوا يسخرون منهم ، هم عمار بن ياسر ، وصهيب ، وسلمان الفارسى ، وخبَّاب بن الأرت ، وبلال ونحوهم - رضى الله عنهم - على ما روى عن مجاهد من أن الآية نزلت فيهم ، والصواب : أن ذلك التحسر والتندم عام فى جميع الكفار ، السابقين ، واللاحقين ، فهم يتندمون على ما حدث منهم فى فقراء جميع الأديان ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

٦٣ ـ (أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ) :

الهمزة فى (أَتَّخَذْنَاهُمْ) للاستفهام الإنكارى المصحوب بالتعجب ، والكلام فى هذه الآية موصول بتعجبهم فى الآية السابقة بقولهم : (مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ) أى : ماذا جرى لنا حيث لا نرى معنا فى النار رجالًا كنا نعدهم من الأشرار لفقرهم ومخالفتهم لنا فى الدين ، أتخذناهم مسخورًا بهم فى دنيانا وهم على حق فلذلك لا نراهم معنا فى النار ؟ أم مالت عنهم أبصارنا وهم فى النار فلا نراهم فيها ؟ .

٦٤ ـ (إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ[1] أَهْلِ النَّارِ) :

أى : إن ذلك الذى حُكِى عن الكفار ـ متبوعين وتابعين ـ لحق تخاصم أهل النار وتنازعهم ، فلابد من حصوله يوم القيامة فى جهنم .

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾)

المفردات :

(الْقَهَّارُ) : الغالب .

(الْعَزِيزُ) : الغالب .

---

(١) تخاصم أهل النار : خبر ثان للفظ (إن) أما الخبر الأول فهو لفظ (لحق) .

(نَبَأٌ عَظِيمٌ) : خبر عظيم .

(الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ) : جماعة الملائكة اختصموا مع إبليس فى شأن آدم ، وسنبين الآراء فى ذلك .

التفسـير

٦٥ ، ٦٦ - (قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ) :

بعد أن بين الله حظوة المتقين عند ربهم يوم الدين ، وشقاء الكافرين يوم يقوم الناس لرب العالمين ، أمر الله نبيه أن يبين للمشركين أن مهمته فيهم هى الإنذار والبلاغ ، وأنه لا يبتغى مغنمًا منهم ولا أجرًا ، وأنه لا يوجد إلٰه لهم سوى الله الواحد القـــهّار ، فلا وجْه لعبادتهم سواه ، فالله هو الغالب الذى لا يقهر ، وهو رب السموات السبع والأَرض ، وما بينهما من الكواكب التى هى زينة للسماء الدنيا ، ومن الشهب والهواء والقوى الكونية التى بين السماء والأَرض ، وهو العزيز الغالب لمن ناوأه فى ألوهيته ، الغفار لمن تاب من كفره ، وأناب إلى ربه ، مع عزته وقهره .

وفى هذه الأَوصاف التى وُصِفَ الله بها فى الآيتين تقرير لتوحيده - تعالى - ووعد للمؤمنين ووعيد للمشركين على نحو ما بيناه .

٦٧ - ٦٩ - (قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) :

قل - أيها الرسول - للمشركين : ما أخبرتكم به من أننى نذير لكم مِنْ عقوبة مَنْ هذه صفاته مِنْ أنه - تعالى - إلٰه واحِد قهّار ، رب السموات والأَرض عزيز - قل لهم - : ما أخبرتكم به من ذلك خبر عظيم أنتم عنه معرضون لا يحرك همتكم ، لتمادى غفلتكم وجهالتكم ، فإن اليقظ العاقل لا يعرض عن مثله ، وقد قامت عليه الحجج الواضحة ، أما على توحيد الله فما مَرَّ من صفاته التى لا تمارون فيها وهو وحيد فى الاتصاف بها ، وأما على نبوة محمد ﷺ

فهو ما أخبرهم به من أن الملأ الأعلى اختصموا فى شأن آدم ، وما كان له من علم بذلك إلّا بطريق الوحى لأنه أمى لا يقرأ ولا يكتب وهو من أمة أمية ، فلولا أنه نبى ما كان له أن يعرف ذلك ، وسيأتى بيان اختصام الملأ الأعلى .

وروى عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، أن الضمير فى قوله : « هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ » راجع إلى القرآن ، ويدخل فيه ما ذكر فى الرأى السابق دخولًا أوليًّا ، واختار هذا الرأى بعض الأجلة ، ويرشحه ما جاء فى أول السورة من قوله - تعالى - : (وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) .

وعلى أى حال فالكلام بجملته تحسير للمشركين ، وتنبيه على مكان الخطأ منهم ، وإظهار لغاية الرأفة والعطف الذى يقتضيه مقام الدعوة .

والمراد بالملأ الأعلى : الملائكة وآدم وإبليس ، لأنهم كانوا فى السماء ، فالعلو حِسِّىٌّ ، وكان اختصامهم وتقاولهم فى شأن السجود لآدم ، وسيأتى بيان ذلك قريبًا فى قصة آدم .

٧٠ - (إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) :

إن : نافية بمعنى ما ، أى : ما يوحى إلىَّ حال الملإ الأعلى ، وما يوحى إلىَّ من الأمور الغيبية التى من جملتها حالهم - ما يوحى إلىَّ ذلك - إلّا لأنى نذير مبين من جهته تعالى .

ويصح أن يعود الضمير فى (يوحى) إلى القرآن الكريم الذى اشتمل على ما تقدم وأعجز البُلغاء ببلاغَتِه وغيرها من فنون إعجازه .

(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾)

المفـردات :

(لِلْمَلَآئِكَةِ) : هم أجسام نورانية قادرة على التشكل لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

(بَشَرًا مِّن طِينٍ) : هو آدم – عليه السلام – .

(وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى) : هذا فى البلاغة يسمى تمثيلًا ، فلم يكن هناك نفخ ، ولا منفوخ ، والمقصود : منحته الحياة ببث الروح فيه ، وإضافة الروح إلى الله من إضافة المملوك إلى مالكه ، كقلمى وكتابى ، وليس من إضافة الجزء إلى الكل ، وسيأتى إيضاح أكثر فى التفسير .

(فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ) أى : فاسقطوا له ساجدين تحية له .

التفسـير

٧١–٧٤–(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَآئِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) :

شروع فى بيان الاختصام والتقاول الذى جرى بين الملأ الأعلى ، فهو بدل من « إِذْ يَخْتَصِمُونَ » بدل كل من كل ، وصح إسناد الاختصام إلى الملائكة لأنه بمعنى القول الذى قالوه بشأن خلقه آدم ، وهو قولهم : (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ)[1] . وقد قالوا ذلك بعد قوله –تعالى– لهم : (إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً) : راجع القصة فى تفسيرنا لها فى سورة البقرة .

والاختصام وقع بينهم ، وبين إبليس وآدم – عليه السلام – وهم الذين عُبِّر عنهم بالملإ الأعلى فى الآية السابقة ، لأنهم كانوا فى الجنة وقت الاختصام ، فالمقصود من العلو علو المكان لا علو المكانة والمنزلة ، وقد يقال : إن إبليس كانت له منزلة عليا لعبادته قبل أن

---

(١) سورة البقرة ، من الآية : ٣٠

يطرده الله من الجنة لكبريائه وإبائه تنفيذ أمر الله بالسجود لآدم ، فقد كان يعبد الله – تعالى – مع الملائكة قبل غضب الله عليه ، والاختصام الذى وقع من إبليس قوله لله تعالى : « أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا »(١) .

وما ترتب على طرده من الجنة ، من وعيده لآدم وذريته بالإغواء فيما حكاه الله – تعالى – فى سورة الأعراف بقوله : (قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَاتَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧)) إلى غير ذلك من سائر قصته .

والاختصام الذى وقع من آدم هو إنباء الملائكة بأسماء المسميات المختلفة التى علمه الله إياها ، بعد أن عجزت الملائكة عن معرفتها بقولهم : (سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)(٢) .

ويلخص ابن كثير قصة آدم مع الملائكة وإبليس تعليقًا على ماجاء فى هذه الآيات بشأنها فيقول مايلى :

هذه القصة ذكرها الله – تعالى – فى سورة « البقرة » وفى أول « الأعراف » ، وفى سورة « الحجر . وسبحان . والكهف » وها هنا . وهى أن الله – سبحانه – أعلم الملائكة قبل خلق آدم – عليه السلام – بأنه – سبحانه – سيخلق بشرًا من صلصال من حمأ مسنون ، وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته أن يسجدوا له إكراماً له وإعظاماً واحتراماً لأمر الله – عزَّ وجلَّ – فامتثل الملائكة سوى إبليس ، ولم يكن منهم جنسًا ، بل كان من الجن ، فخانه طبعه وجبلته ، فاستنكف عن السجود لآدم ، وخاصم ربه – عزَّ وجلَّ – فيه ، وادعى أنه خير منه ، فإنه مخلوق من نار ، وآدم خلق من طين ، والنار خير من الطين فى زعمه ، وقد أخطأ فى ذلك وخالف أمر الله وكفر بذلك ، فأبعده الله وأرغم أنفه ، وطرده عن باب رحمته ومحلِّ أنسه وحضرةِ قدسه ، وسماه إبليس إعلامًا له بأنه قد أبلس – أى : يئس – من

(١) سورة الإسراء ، من الآية : ٦١

(٢) سورة البقرة ، من الآية : ٣٢

الرحمة ، وأنزله من السماء مذمومًا مدحورًا إلى الأرض ، فسأل الله النَّظِرَةَ إلى يوم البعث ، فأنظره الحليم الذى لا يعجل على من عصاه . فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى وقال : (فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) كما قال : (أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا)[1] وهؤلاء المستثنون فى الآية الأخرى ، وهى قوله ـ تعالى ـ : (إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا)[2] . انتهى مع تصرف يسير .

وقال البيضاوى : إن قصة آدم اختصرت فى هذه السورة اكتفاء بما مرَّ فى سورة البقرة ، واقتصارًا على ما هو المقصود منها ، وهـو إنذار المشركين على استكبارهم على النبى ﷺ بمثل ما حاق بإبليس على استكباره على آدم ـ عليه السلام ـ ومن الجائز أن تكون مقاولة الله ـ تعالى ـ إياهم بواسطة ملك ، وأن يفسر الملأ الأعلى بما يعم الله والملائكة . انتهى بتصرف يسير .

وإضافة الروح إلى الله ـ تعالى ـ فى قوله : « وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى » من إضافة المملوك إلى مالكه ، وليس المقصود أنه جزء من روح الله تعالى . بل المقصود تشريف الروح التى أفاضها الله على آدم وخلقها له ، وقد كفر النصارى فى تفسير إضافة روح عيسى إلى الله ـ تعالى ـ فى كتبهم ، بأنه جزء من روح الله ، فوصفوه بأنه ابن الله لذلك ، ثم تمادوا وتطاولوا فجعلوه هو الله ـ تعالى ـ وهم يجادلون المسلمين فيما جاء بالقرآن من نحو قوله ـ تعالى ـ : (وَالَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا[3]) . وقد ضلوا بذلك سواء السبيل ، فإن معنى الآية : فنفخنا فيها مبتدئين النفخ من روحنا وهو جبريل ـ عليه السلام ـ بدليل قوله ـ تعالى ـ : (فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا)[4] ، وهو الذى سماه الله فى القرآن الروح الأمين فى قوله تعالى : (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ)[5] .

---

(١) سورة الإسراء ، من الآية : ٦٢
(٢) سورة الإسراء : آية : ٦٥
(٣) سورة الأنبياء ، من الآية : ٩١
(٤) سورة مريم ، من الآية : ١٧
(٥) سورة الشعراء ، الآيتان : ١٩٣ – ١٩٤

ثم يقال لهم : لو كان الأمر كما زعمتم فى الآية لوجب عليكم اعتقاد أن آدم جزء من روح الله ، حيث جاء فيه هنا : (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) . ووجب أن لا تقصروا بنوة الله على عيسى وحده ، تعالى الله عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا .

واعلم أن كل شىء فى هذا الكون مضاف إلى الله ، فالسماء سماء الله والأرض أرض الله ، وروح الإنسان روح الله ، أى : مملوكة له ، وداخلة تحت أمره ، فمتى يعقل هؤلاء الكافرون ؟ .

ومعنى هذه الآيات إجمالًا مع ما قبلها : ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون فى شأن آدم ، إذ قال ربك – أيها الرسول – للملائكة : إنى خالق بشرًا من طين ، فإذا عدلت خلقته وصورته ، وأحييته بخلق الروح فيه فخروا له ساجدين تحية وتبجيلًا وامتثالًا لأمر الله – تعالى – .

فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلَّا إبليس تعاظم وصار من الكافرين ، باستنكاره أمر الله – تعالى – واستكباره على المطاوعة .

قد يقول قائل : إن الأمر بالسجود لآدم كان موجهًا إلى الملائكة ، فكيف يعاقب إبليس على عدم السجود له وهو غير مأمور به ؟ .

والجواب من وجهين :

أحدهما : أنه كان موجودًا بين الملائكة وليس منهم ، فإذا كان أشرف منه قد أمر بالسجود لآدم ، فإن عليه أن يسجد له مثلهم من باب أولى .

وثانيهما : أن من ينزل على قوم فلابد أن يخضع لتكاليفهم وقوانينهم ، وإلَّا فإنه يستحق الطرد ، لأنه مستوطن غير صالح للاستيطان .

(قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾)

المفردات :

(لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) أى : لمن خلقته بنفسى من غير توسط أب ولا أم .

(أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ) : أتكبرت من غير استحقاق أم كنت ممن علا واستحق التفوق ، وللكلام بقية فى التفسير .

(رَجِيمٌ) : مطرودٌ من الرحمة .

التفسير

٧٥- (قَالَ يَآإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ) :

معلوم أنه -تعالى- لا يشبهه شىء لقوله -تعالى- : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ) فالتعبير باليدين فى خلق آدم ليس مرادًا به الحقيقة عند أهل التأويل من الخلف ، فهو عندهم كما قال الآلوسى : تمثيل لكون آدم - عليه السلام - معتنى بخلقه ، فإن من شأن المعتنى به أن يُعْمل باليدين ، والمقصود أنه خلقه بنفسه من غير توسط أب ولا أم ، وجعله جسمًا صغيرًا انطوى فيه العالم الأكبر ، وكونه أهلًا لأن يفاض عليه مالا يفاض على غيره من مزايا الآدمية ، وعند بعض آخر من أهل التأويل : أن اليد مجاز عن القدرة ، والتثنية للتأكيد على مزيد عناية الله بخلقه ، حيث طوى فيه العالم الأكبر . انتهى بتصرف يسير .

وقال القرطبي : أضاف خلقه إلى نفسه تكريماً له ، وإن كان خالق كل شيء ، وهذا كما أضاف إلى نفسه الروح والبيت والناقة والمساجد ، فخاطب الناس بما يعرفونه فى تعاملهم ، فإن الرئيس من المخلوقين لا يباشر شيئًا بيده إلّا على سبيل الإعظام والتكريم ، فذكر اليد هنا بمعنى هذا . قال مجاهد : اليد ها هنا بمعنى التأكيد والصلة أى : لما خلقت أنا[1] ، ثم قال القرطبي : وقيل : أراد باليد القدرة ، يقال : مالى بهذا الأمر يد ، ومالى بالحمل الثقيل يدان ، ويدل عليه أن الخلق لا يقع إلّا بالقدرة بالإجماع ، وقال الشاعر :

تَحمَّلْت مِن عفراء ماليس لى به ولَا لِلجبال الراسِيات يدان

وقيل : (لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ) : لما خلقت بغير واسطة . انتهى كلام القرطبي بتصرف يسير .

ومعنى : (أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ؟) أتكبرت من غير استحقاق ، أم كنت مستحقًّا للعلو فائقًا فيه؟ وقيل معناه : أحدث لك الاستكبار ، أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين ، فالتقابل على الأول باعتبار الاستحقاق وعدمه ، وعلى الثانى باعتبار الحدوث والعدم ، ولذا قيل : أم كنت دون أم أنت[2] .

والمعنى الإجمالى للآية : قال الله – تعالى – لإبليس على لسان ملك : أى شيء منعك من أن تسجد لمن خلقته بنفسى بغير توسط أب وأم ، عناية بخلق من طويت فيه العالم الأكبر ، أتكبرت من غير استحقاق؟ أم كنت مستحقًّا للعلو فائقًا فيه؟ .

٧٦ – (قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ) :

هذا جواب الاستفهام الأخير (أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ)[3] يعنى أنه من العالين حقيقة ، وليس متصنعًا للعلو ، فهو مخلوق من نار ، وآدم مخلوق من طين ، والنار – فى نظره – أشرف من الطين وأعلى منه ، فكيف يسجد الأعلى للأدنى .

---

(١) ومثل له بقوله تعالى : (ويبقى وجه ربك) أى ويبقى ربك .

(٢) انظر الآلوسى .

(٣) وهو فى نفس الوقت متضمن للجواب على الاستفهام الأول « ما منعك أن تسجد » .

٧٧ ، ٧٨ - (قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ) :

قال الله لإبليس ردًّا على كبريائه على آدم ، وتكبره على تنفيذ أمر خالقه : اخرج من الجنة التى أنت فيها ، أو من صورة المتقين التى كنت فيها إلى صورة العصاة الممقوتين ، فإنك مطرود من كل خير ، فالرجم كناية عن الطرد ، لأن المطرود يرجم بالحجارة ، أو : اخرج منها فإنك شيطان يرجم بالشهب ، أو : الرجم كناية عن الذلة ، وهذا وجه حسن ، ليوافق قوله -تعالى- فى سورة الأعراف : (فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ)[1] وإن عليك إبعادى عن الرحمة إلى يوم الجزاء والعقوبة حيث تلقى يومئذ عاقبة طردك من رحمتى .

ويرى ابن عباس : أن الجنة التى كان فيها روضة فى عدن وليست جنة الخلد ، وبهذا الرأى أخذ كثير من العلماء[2] ، وعلى هذا يكون المراد من إخراجه منها : إخراجه من صورة المتقين إلى صورة المردة العصاة ، ويدل على ذلك أنه وسوس لآدم فيها حتى حمله على الأكل من الشجرة ، والله أعلم .

(قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾)

المفـردات :

(رَبِّ فَأَنظِرْنِى) : رب فأمهلنى .

(يُبْعَثُونَ) : آدم وذريته .

(إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) : إلى يوم الوقت الذى عينته لفناء الخلق .

---

(١) سورة الأعراف من الآية : ١٣

(٢) حيث قالوا : إنها جنة فى الأرض، بدليل أن آدم لما خلق من تراب الأرض لم يرد أنه رفع إلى جنةالسماء.

التفسير

٧٩ - ٨١ - (قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) :

أراد إبليس اللعين أن لا يموت ، بأن يبقى حيًّا إلى يوم البعث ، فلم يجبه الله إلى ذلك ، وأخره إلى الوقت المعلوم لله - تعالى - وحده ، وهو يوم يموت الخلق فيه ، فأخر إليه تهاونا به ، وإمهالًا له .

والمعنى : قال إبليس : رب فأخرنى إلى يوم يبعث فيه الخلائق للحساب والجزاء ، يريد بذلك الحصول على وعد ببقائه دون أن يلحقه الموت الذى قضى به على سواه ، قال الله له : إنك من جملة المؤخرين الذين قضيت أزلا بتأخير موتهم إلى يوم الوقت المعلوم لى وحدى ، لحكمة أردتها ، وهذا اليوم هو يوم النفخة الأولى التى يصعق فيها الخلائق .

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾)

المفردات :

(فَبِعِزَّتِكَ) : فبسلطانك وقهرك (لَأُغْوِيَنَّهُمْ) : لأغرينهم بالمعاصى .

التفسير

٨٢ ، ٨٣ - (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) :

قال إبليس لما سمع وعيده باللعنة إلى يوم الدين : إذا كان عقابى ما ذكر فبسلطانك وقهرك لأزينن المعاصى لآدم وذريته أجمعين ، إلَّا عبادك منهم الذين أخلصتهم لطاعتك ، وعصمتهم من الغواية ، فلن يتأثروا بغوايتى .

٨٤ ـ ٨٥ (قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ) :

قال الله متوعدًا إبليس : فالأمر الثابت ولا أقول سوى الحق . والله لأملأن جهنم من جنسك وممن تبعك من ذرية آدم أجمعين .

(قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾)

المفردات :

(مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) : من المتصنعين .

(ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ) : تذكير ووعظ لهم

التفسير

٨٦ ـ ٨٨ ـ (قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَاْ مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ) :

قل أيها الرسول لأمتك : ما أسألكم على تبليغ القرآن والوحي أي أجر حتى تكذبوني من أجله ، فلم أطلب الملك ، ولا الزعامة ، ولا المال حتى تبتعدوا عني ، وتناوئوني ، وما أنا من المتصنعين مما ليسوا من أهله على ما عرفتم من حالي فأنتحل النبوة وأتقول القرآن ، فما عرفتموه من سيرتي قبل النبوة يشهد لي بالصدق فيما دعوتكم إليه ، ما القرآن إلا تذكير ووعظ للعالمين من الإنس والجن ، والله لتعلمن نبأه من الصدق بعد حين ، حين ينتشر الإسلام ويدخل الناس فيه أفواجاً ، وعندما تموتون وحين تبعثون ، حينئذ تندمون ولات ساعة مندم .

سورة الزمر

مكية وآياتها خمس وسبعون

وتسمى سورة الغرف لقوله تعالى : (لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ) وهى مكية كلها ، أخرج ابن الضريس ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل : عن ابن عباس : أنها نزلت بمكة ولم يستثن .

ووجه اتصال أولها بآخر (صٓ) أنه - تعالى- قال فى آخر (صٓ) : (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) وقال هنا : (تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ) قال الآلوسى : وفى ذلك كمال الالتئام بحيث لو أسقطت البسملة لم يتنافر الكلام ، ثم إنه ذكر آخر (صٓ) قصة خلق آدم وذكر فى صدر هذه قصة خلق زوجه منه ،وخلق الناس كلهم منه ، وذكر خلقهم فى بطون أمهاتهم خلقاً من بعد خلق ، ثم ذكر أنهم ميتون ، ثم ذكر - سبحانه - القيامة والحساب . والجنة والنار ، وختم بقوله- سبحانه- : (وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) فذكر - جل شأنه - أحوال الخلق من المبدأ إلى آخر المعاد ، متصلا بخلق آدم المذكور فى السورة قبلها ، وبين السورتين أوجه أخرى من الربط تظهر بالتأمل : انتهى كلام الآلوسى .

مقاصد السورة

بين الله -تعالى- فى هذه السورة أنه هو الذى أنزل الكتاب بالحق وطلب إلى عباده أن يخلصوا له العبادة ولا يشركوا به أحدًا ، وبين أنه لو أراد أن يتخذ وندًا لاصطفى مما يخلق ما يشاء - سبحانه - هو الله الواحد القهار ، وأتبع ذلك ببيان خلقه للسموات والأرض . . وما فيهما من الآيات الشاهدة بوحدانيته ، وأنه خلق عباده كلهم من نفس واحدة ، وبين أنه لا يرضى لعباده الكفر ، ولكنه يرضى منهم الشكر ، وفرق بين العلماء وغيرهم فقال : (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ) ثم خوف المشركين من سوء المصير بقوله : (لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ) وبشر الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت وكانوا يستمعون

القول فيتبعون أحسنه (أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَـٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ) ثم بين أنه تعالى : (نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) وأنه ضرب للناس فى هذا القرآن من كل مثل ، وأنه لايوجد أظلم ممن كذب على الله ، وكذب بالصدق إذ جاءه ، ثم بين أنهم يعترفون بخلق الله للسموات والأرض ، فلا وجه لعبادتهم غيره ممن لا يرفع ضرًّا ولا يجلب نفعاً ، ثم بين أنه ــ تعالى ــ هو الذى يتوفى الأنفس حين موتها ، وأنه (إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) ثم فتح الله ــ تعالى ــ أبواب الرحمة لجميع التائبين من الكفار والعصاة فقال : (قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً . .) ثم قال : (وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ) ثم بين أن الذين كذبوا على الله تسود وجوههم يوم القيامة ، ومصيرهم جهنم ففيها مثوى المتكبرين ، وأنه ــ تعالى ــ ينجى الذين اتقوا بمفازتهم من العذاب (لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) ثم بين أن المشركين ما قدروا الله حق قدره (وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) ثم قال : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ) ثم بين أن الأرض يومئذ تشرق بنور ربها (وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) . ثم ذكر أن خزنة النار يوبخون أهلها قائلين : (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) وأن الذين اتقوا يساقون إلى الجنة زمرا (حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ) ثم قال : (وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾)

المفــردات :

(تَنزِيلُ الْكِتَابِ) : خبر لمبتدأ مقدر ، أى هذا تنزيل الكتاب ، أو مبتدأ خبره « مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ » وهو على الأول متعلق بتنزيل ، والظاهر أن الكتاب على الأول مراد به السورة ، وعلى الثانى القرآن كله .

(زُلْفَى) أى : قربة ومنزلة ، وهى اسم مصدر من أزلفه إزلافاً أى : قربه تقريباً .

(كَفَّارٌ) : مبالغ فى الكفر .

(لَاصْطَفَىٰ) : لاختار .

(الْقَهَّارُ) : الشديد القهر ، يَغْلِب ولا يُغْلَب .

التفسير

١ - (تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) :

هذه الآية نزلت لإحقاق الحق ، والرد على مزاعم قريش من أن القرآن من تأليف محمد وأنه يعلمه بشر .

والمعنى : تنزيل القرآن كائن من الله الغالب الحكيم فيما يقول ، وأثر الغلبة والحكمة واضح فى القرآن العظيم ، فقد أعجز البشر أن يأتوا بمثله ، وغلبت أحكامه وتشريعاته سواه ، لما اشتمل عليه من الدقة والصدق ، ومراعاة مصلحة البشر دنيا وأخرى ، وكل ذلك شاهد بأنه من الله العزيز الحكيم ، وليس فى قدرة البشر أن يأتوا بمثله ، وقد أكد الله نزوله من العزيز الحكيم بقوله :

٢ - (إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ) :

إنا أنزلنا إليك - أيها الرسول - القرآن ملتبسًا بالحق أو بسبب إظهار الحق وتفصيله ، فاعبد الله أنت ومن آمن معك :اعبده مخلصًا له الدين ، فلا تشرك معه فى العبادة أحدًا ، فإنه لا رب سواه .

وقد دَلَّ الأمر بإخلاص الدين لله على وجوب تجريد العبادة من كل شرك ، فنى الحديث القدسى : « من عمل عملًا أشرك فيه معى غيرى تركته وشريكه » .

وروى الحسن :عن أبى هريرة أن رجلًا قال : يارسول الله ، إنى أتصدق بالشىء وأصنع الشىء أريد به وجه الله وثناء الناس ، فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفس محمد بيده لا يقبل الله شيئًا شورك فيه » ، ثم تلا رسول الله ﷺ : (أَلَا لِلهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) .

ونقل القرطبى عن ابن العربى : أن هذه الآية دليل على وجوب النية فى كل عمل ، وأعظمه الوضوء الذى هو شطر الإيمان ، خلافًا لأبى حنيفة ، والوليد بن مسلم ، فإنهما يقولان : إن الوضوء يكفى من غير نية . قال ابن العربى : وما كان ليكون من الإيمان شطرًا ، ولا ليخرج الخطايا من بين الأظافر والشعر بغير نية .

٣ـ (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ) :

قال قتادة : كانوا إذا قيل لهم : من ربكم وخالقكم ، ومن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء ؟ قالوا : الله ، فيقال لهم : ما معنى عبادتكم الأصنام ؟ قالوا : ليقربونا إلى الله زلفى ، قال الكلبي : جوابه في سورة الأحقاف : (فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً)[1] .

وجملة (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ) مقول لقول مقدر ، أي : قالوا : ما نعبدهم وبه قرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد .

ومعنى الآية : ألا لله الطاعة الخالصة من شوائب الشرك ، فإنه المنفرد بصفات الألوهية والاطلاع على الأسرار والضمائر ، والذين اتخذوا من دون الله أربابًا ونصراء ، قالوا في تبرير عبادتهم لهم : ما نعبدهم إلَّا ليقربونا إلى الله تقريبًا ، يقولون ذلك مع أن الله أقرب إليهم من حبل الوريد ، إن الله يحكم بينهم وحده يوم القيامة فيما هم فيه مختلفون مع أهل الحق ، فيقضي بإدخال أهل الحق الجنة ، وأهل الباطل النار .

وقيل المعنى : يحكم بينهم وبين معبوديهم ، فإنهم يرجون شفاعتهم وهم يلعنونهم ؛ إن الله لا يوفق من هو كاذب كفار إلى الاهتداء للحق ، لإصراره على الكذب ، ومبالغته في الكفر .

٤ ـ (لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) :

هذه الآية للرد على من زعم أن الملائكة بنات الله ، وأن عيسى ابن الله .

وحاصل معنى الآية : لو أراد الله أن يتخذ ولدًا ويسميه بهذا الاسم ما جعل هذه التسمية لهم ، وكان يصطفى مما يخلق ما يشاء ويسميه بهذا الاسم ، لكنه لا يصطفى من المخلوق الحادث ولدًا لاستحالة الولدية عليه ـ تعالى ـ ولأن الحادث لا يصلح ولدا للقديم ، وحيث بطلت الولدية للحادث ، فيستحيل على الله أن يريد اتخاذ الولد ، وهذا معنى ما يقوله علماء المنطق : إذا بطلَ التالى بطل المقدم .

(١) سورة الأحقاف من الآية : ٢٨

ونحو هذا المعنى قال الآلوسى : وجوز أن يكون المعنى فى الآية : لو أراد الله أن يتخذ ولدًا لجعل المخلوق ولدًا ، إذ لاموجود سواه إلا وهو مخلوق له – تعالى – والتالى محال للمباينة التامة بين المخلوق والخالق ، والولدية تأبى هذه المباينة[1] فالمقدم مثله ، ويكون معنى (لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ) لاتخذه ابناً على سبيل تقدير المستحيل . . . انتهى بتصرف .

ثم ختم الله الآية بقوله : (سُبْحَانَهُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) تنزيهاً له – تعالى – عن أن يتخذ ولدًا أو شريكاً فى الألوهية ، هو الواحد القهار الذى لا يشركه فى الألوهية شريك ، فلا يصلح ما سواه أن يكون له ولدًا ، فإنه مخلوق لله ، والمخلوق لا يسمى ولدًا لخالقه ، ولايصلح لذلك ، فضلا عن أن يكون له شريكاً ، والقهارية المطلقة تنافى قبول الزوال المحوج إلى الولد أو الشريك .

(خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾)

---

(١) لأن الولد صنو أبيه وشريكه فى صفاته .

المفـردات :

(بِالْحَقِّ) : بالحكمة والصواب .

(يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ) أى : يلفُّه فيخفيه ، من : كَار العِمامةَ وكَوَّرها على رأسه إذَا لَفَّها [1] .

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) : وذلَّلَهُما لمراده .

(كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى) : كل يسير لمنتهى دوره ، أو لمنقطع حركته .

(ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا) : حواء ، وسيأْتِى الكلام فى هذا الجعل .

(وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) الأَنعام : الإبل والبقر والغنم والمعز ، وكانت ثمانية أصناف ، لأن كُلاًّ منها ذكر وأنثى ، وإنْزَالها قضاؤُها .

(فِى ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ) : ظُلُمات البطن ، والرحم ، والمشيمة .

التفسير

٥ - (خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ) :

هذه الآية مسوقة لإثبات وحدانية الله وقهره لما سواه ، والمراد من تكويره الليل على النهار وعكسه : أن يُذْهِب أحدهما ويأْتى بالآخر ليحل محله ، وقد عبر عن ذلك بالصورة البلاغية الموجودة فى الآية على سبيل الاستعارة ، فاطلب شرح ذلك من المطولات إن أَردت .

ومعنى الآية : خلق الله هذا العالم المشاهد وغير المشاهد ، ملتبساً بالحق والحكمة والصواب ، يغشى الليل مكان النهار ، فتحل به الظلمة ، فيسكن الناس وينامون ويستريحون من كَدِّ النهار ، ويغشى النهار مكان الليل ، فيحل به النور ، فينشط الخلائق ويعملون لما خلقوا من أجله ، وسخر الشمس والقمر حيث جعلهما يجريان فى مداريهما ، فيترتب على تذليلهما وجود النهار تارة ، والليل تارة أُخرى ، والفصول الأَربعة : الربيع ،

---

(١) أو من كور المتاع : ألقى بعضه على بعض .

فالصيف ، فالخريف ، فالشتاء ، لمصلحة الإنسان والحيوان والنبات ، وهذا الجريان لأجل سماه الله ـ تعالى ـ لانتهاء دورة كل منهما فى مداره ، أو لانقطاع حركته عند فناء العالم ، ألا هو العزيز القادر على عقاب المصرين على الكفر والمعاصى ، الغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً .

٦ ـ (خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَالِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) :

وهذا دليل آخر على وحدانية الله وقهره لسواه ، وَتَرَكَ عطفه على خلق السموات والأرض ، للإيذان باستقلاله فى الدلالة على وجود الله وسائر كمالاته .

والمراد بالنفس الواحدة التى خلقنا منها : نفس آدم ـ عليه السلام ـ فقد خلقت منه زوجه ، ثم حدث التوالد بعد ذلك على النحو المعلوم ، وبدأ بخلق الإنسان ، لأنه أقرب وأعجب بالنسبة إلى غيره ، باعتبار مافيه من العقل وقبول الأمانة الإلٰهية وغير ذلك حتى قيل فيه :

وتزعم أنك جسم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

واختلف فى معنى خلق حواء من آدم ، فمعظم العلماء على أنها خلقت من قصيرى ضلعه اليسرى وهى أسفل الأضلاع ، وقيل : إنه بمعنى أنها خلقت من جنسه ليسكن إليها ، وقيل : إنها خلقت من بقية طينته ، والله أعلم .

وأما قوله تعالى : (وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) فهو استدلال بنوع آخر من العالم السفلى ، والأنعام هى : الإبل ، والبقر ، والضأن ، والمعز ، وكانت ثمانية أزواج أى : أصناف ، باعتبار الذكر والأنثى فى كل منها ، وفى ذلك يقول الله فى سورة الأنعام : « ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ » ثم قال : « وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ »[1] ، ومعنى إنزال هذه الأنعام الثمانية قضاؤها ، وإنزال الملائكة لتنفيذه ، فالكلام على سبيل المجاز .

---

(١) سورة الأنعام، من الآيتين : ١٤٣ ـ ١٤٤

وأما قوله -تعالى- : (يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ . .) فهو بيان لخلق مَنْ ذكر من بنى آدم والأنعام .

والمعنى الإجمالى للآية : خلقكم من نفس واحدة هى نفس آدم ، خلقها أولا ثم جعل من جنسها زوجها ليسكن إليها ، وقضى لكم من الأنعام ثمانية أصناف : الإبل ، والبقر ، والغنم ، والمعز ، ذكورها وإناثها ، يخلقكم ، ويخلق الأنعام خلقاً مدرجاً ، خلقاً من بعد خلق ، حيواناً سويًّا مِنْ بعْدِ عظام مكسوة باللحم مصورة داخل الرحم ، مِنْ بعْدِ مُضَغٍ ، من بعد علق ، من بعد نُطَف ، ويتم كل ذلك فى ظلمات ثلاث ، ظلمة البطن ، وظلمة الرحم وظلمة المشيمة ، أو الصلب ، والرحم ، والبطن ، ذلكم الذى أبدع هذه العظائم هو الله ربكم المستحق وحده لعبادتكم ، له الملك على الإطلاق فى الدنيا والآخرة ، ليس لغيره شريك فى ذلك كله ، لا إله إلَّا هو ، فكيف تصرفون عن عبادته مع وفور موجباتها ودواعيها ، وانتفاء الصارف عنها - كيف تصرفون - إلى عبادة غيره مع كثرة الصوارف عن هذا الغير .

(إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾)

المفـردات :

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) : ولا تحمل نفس حاملة إثمها ذنب نفس أُخرى ، وقال الأخفش :

لا تأثم نفس آثمة بإثم نفس أُخرى : ا هـ . وفى معناه قوله -تعالى- : (كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)[1] :

(١) سورة الطور من الآية : ٢١

التفسير

٧ - (إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) :

يخاطب الله عباده المصرين على الكفر بقوله : إن تظلوا على كفركم ، فإن الله غنى عنكم وعن إيمانكم ، وقد جاء فى الحديث القدسى أنه – تعالى – قال : « يا عِبادِى لَوْ أَنَّ أولكُم وآخِرَكُم وإنسَكُمْ وجنَّكُم كانُوا علَى أَفْجرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُم ما نَقَصَ ذَلكَ مِنْ مُلْكِى شَيئا » أخرجه الإمام مسلم .

ومع كونه – تعالى – غنياً عن إيمان عباده ، وغير محتاج إليه ، ولا إليهم ، فإنه لا يرضى لعباده الكفر ولا يحبه لهم لسوء عاقبته ، وما قدره عليهم إلا لسوء اختيارهم وإصرارهم عليه ، وإن تشكروا نعمه عليكم بالإيمان والعمل الصالح فإنه – تعالى – يرضاه ويحبه لكم لحسن عاقبته .

ولا تحمل نفس آثمة بعملها إثم نفس أُخرى ، فكل امرىء بما كسب رهين ، مالم يتسبب فى إثم النفس الأُخرىٰ ، كالآباء الذين يسيئون تربية أولادهم . فينشئون على المعاصى مثل آبائهم ، فإنهم يتحملون إثم إضلالهم منضما إلى إثم ضلالهم ، من غير أن ينقص ذلك من إثم الأَولاد المكلفين شيئاً ، فكلٌّ مسئول عن ضلاله ، وفى وجوب وقاية الأَولاد من المعاصى التى تدخلهم النار ، يقول الله تعالى : « يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَآئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ »[1] .

ويختم الله الآية منذرًا ومتوعدًا بقوله : (ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) أى : ثم إلى الله – تعالى – رجوعكم بالبعث والنشور ، فيخبركم بما كنتم تعملون فى دنياكم من خير فيثيبكم عليه ، أو شر فيعاقبكم عليه إنه عليمٌ بما انطوت عليه الصدور من النوايا والأَسرار من طاعة أو معصية فلا تخفى عليه خافية .

---

(١) سورة التحريم الآية : ٦

* (وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾)

المفردات :

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ) أى : شدة من البلاء والفقر .

(مُنِيبًا إِلَيْهِ) أى : راجعا إلى الله منصرفا عما كان يدعوه من دون الله - عز وجل -

(ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ) أى : أعطاه وملكه نعمة عظيمة من لدنه يقال : خولك الله الشىء ، أى : أعطاك إياه . والأصل أعطاك خَوَلًا - بفتحتين - أى : عبيدا وخدما . أو أعطاك ما تحتاج إلى تعهده والقيام عليه . ثم عُمِّم لمطلق العطاء .

(أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ) القانت : المطيع ، قاله ابن مسعود . وفى القاموس : أقنت : دعا على عدوه ، أو أطال القيام فى صلاته .

(ءانَآءَ اللَّيْلِ) : ساعاته أوله ووسطه وآخره ، وعن ابن عباس : آناء الليل : جوفه .

التفسير

٨ - (وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا ربَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ النَّارِ) :

الآية وصف للجنس بحال بعض أفراده كقوله تعالى: «إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ»[1].

واستظهر أبو حيان أن المراد بالإنسان جنس الكافر. وقيل: المراد به معين وهو عتبة ابن ربيعة، وأبو جهل، أي: وإذا مس الكافر بلاء ونزلت به شدة دعا ربه راجعا إليه، منصرفا عما كان يدعوه من دون الله فى حال الرخاء لعلمه أنه بمعزل عن القدرة على كشف ضره.

«ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ» أى: إذا أعطاه نعمة عظيمة من لدنه أذهبت عنه شدته، وأعـادت إليه رخاءه، نسى الضر الذى كان يدعو الله إلى إزالته وكشفه. أو نسى الدعاء الذى كان يتضرع به من قبل التخويل والإعطاء. (فما) واقعة على الضر أو على الدعاء الذى كان يتضرع به. ويجوز أن يراد من لفظ (ما) فى قوله: (نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ) أن يراد بها الله - تعالى - كما فى قوله - سبحانه وتعالى -: «وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ» وقوله: «وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ» أى: نسى ربه الذى كان يدعوه متضرعا إلى كشفه.

(وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ): وجعل لله أمثالا وشركاء فى العبادة فى حال العافية.

(قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا) أى: قل يا محمد تهديدا لذلك الذى جعل لله أندادا: تمتع بكفرك تمتعاً قليلا أو زمانا قليلا فى الدنيا (إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ النَّارِ) أى: ملازميها والمعذبين فيها على الدوام. والجملة تعليل لقلة التمتع. وفيه من الإقناط من النجاة وذم الكفر ما لا يخفى. كأنه قيل: قد أبيت ماأمرت به من الإيمان والطاعة. فاستمتع بهذا الكفر الذى أنت فيه تمتعاً قليلا لا ينجيك من عذاب الآخرة فمتاع الدنيا قليل.

٩ - (أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ الَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الْأَلْبَٰبِ):

---

(١) سورة إبراهيم من الآية: ٣٤

بين -سبحانه- بهذه الآية أن المؤمن ليس كالكافر الذى مضى ذكره فلا يستويان عند الله «وأم» المدغمة إما متصلة قد حذف قبلها ما يقابل ما بعدها ثقة بدلالة مساق الكلام عليه . كأنه قيل له تأكيدا للتهديد وتهكما به : أأنت أيها الكافر الذى تدعو ربك فى الضراء وتنساه فى السراء أحسن حالا ومآبا ، أم الذى هو قانت يقوم بمواجب الطاعات ، ويداوم على وظائف العبادات فى ساعات الليل التى فيها العبادات أقرب إلى القبول ، وأبعد عن الرياء ، ويدعو فى حالتى السراء والضراء (سَاجِدًا وَقَآئِماً) أى : جامعا بين الوصفين المحمودين . وتقديم السجود على القيام لأنه أدخل فى العبادة لحديث : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » .

(يَحْذَرُ الآخِرَةَ) : استئناف وقع جواباً عما نشأ من حكاية حاله . فكأنه قيل : ما باله يفعل هذا ؟ فقيل : يحذر الآخرة . أى : عذاب الآخرة (وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ) فينجو بذلك مما يحذر . ويفوز بما يرجوه وهو الجنة كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الربوبية . مع الإضافة إلى ضمير الراجى . وجواب هذا الاستفهام أن المطيع هو الأحسن حالا ومآلا .

وإما أن تكون (أم) منقطعة وما فيها من الإضراب الانتقالى من التهديد بقوله تعالى : (تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ النَّارِ) إلى التبكيت بتكليف الجواب الملجىء إلى الاعتراف بما بينهما من التباين البين كأنه قيل : بل الذى هو قانت من أصحاب الجنة .

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ) أى : قل لهم يا محمد - بيانا للحق وتنبيها على شرف العلم والعمل - : هل يستوى الذين يعلمون حقائق الأحوال فيعملون بمقتضى علمهم كالقانت المذكور ، والذين لا يعلمون ما ذكر فلا يعملون ؟ كلاَّ لا يستوون والاستفهام للتنبيه على كون الأولين فى أعلى مدارج الكمال . وكون الآخرين فى أقصى مدارج الشر .

قال الزجاج : كما لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، كذلك لا يستوى المطيع والعاصى فهو وارد على سبيل التشبيه ، أى : كما لايستوى العالمون والجاهلون لا يستوى القانتون والعاصون (إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ) كلام مستقل غير داخل فى الكلام المأمور به ، وارد من جهته -تعالى - بعد الأمر بما ذكر من القوارع الزاجرة عن الكفر والمعاصى لبيان عدم تأثيرها فى قلوب الكفرة لاختلال عقولهم ولا يتعظ بوعظ الله وبياناته الواضحة إلا أصحاب العقول الخالصة من شوائب الخلل من المؤمنين . وهؤلاء بمعزل عن ذلك .

(قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾)

(اتَّقُواْ رَبَّكُمْ) : احذروا معاصيه وامتثلوا أوامره .

(وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ) : فهاجروا فيها ولا تقيموا مع من يعمل المعاصى .

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ) قال الأوزاعى : لا يوزن لهم ولا يكال وإنما يغرف لهم غرفاً لصبرهم على كل بلاءٍ . ويشمل الصبر على الهجرة شمولا أوليا .

التفسير

١٠ - (قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَـٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ...) الآية :

أمر الله رسوله ﷺ أن يذكر المؤمنين ويحملهم على التقوى والطاعة إثر تخصيص التذكر بأولى الألباب . أى : قل لهم هذا بعينه وهو (اتَّقُواْ رَبَّكُمْ) وفيه تشريف لهم بإضافتهم إلى ضمير الجلالة ، ومزيد اعتناء بشأن المأمور به وهو التقوى فإنَّ نَقْلَ عبارة أمر الله - تعالى - أدخل فى إيجاب الامتثال به .

« لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ » تعليل للأمر بالتقوى ، أو لوجوب الامتثال به أى : قل للمحسنين فى هذه الدنيا على وجه الإخلاص ، وهو الذى عبر عنه رسول الله ﷺ حين سئل عن الإحسان بقوله - عليه السلام - : « أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » .

لهؤلاء المحسنين حسنة فى الآخرة عظيمة لا يدرك كنهها وهى الجنة ، وقيل المعنى : للذين أحسنوا فى الدنيا . حسنة فى الدنيا زيادة على ثواب الآخرة ، والحسنة الزائدة فى الدنيا الصحة والعافية والظفر والغنيمة ، قال القشيرى : والأول أصح لأن الكافر قد نال نعم الدنيا .

ويقول القرطبى تعليقاً على ذلك : وينالها معه المؤمن ويزاد الجنة إذا شكر تلك النعم وقد تكون الحسنة فى الدنيا الثناء الحسن ، وفى الآخرة الجزاء الحسن .

(وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ) أى : فهاجروا فيها ولا تقيموا مع من يعمل المعاصى . وقيل المراد : أرض الجنة رغبهم فى سعتها ، وسعة نعيمها ، والجنة قد تسمى أرضاً ، قال تعالى : « الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ » [1] والأول أظهر فهو أمر بالهجرة (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ) ترغيب فى التقوى المأمور بها ، أى : إنما يوفى الذين صبروا على دينهم ، وحافظوا على حدوده ، ولم يفرطوا فى مراعاة حقوقه حين امتحنوا بالآلام والبلايا التى من جملتها مهاجرة الأهل ، ومفارقة الأوطان . هؤلاء يوفون أجرهم بمقابلة ما كابدوا من الصبر ، يوفونه بغير حساب ، والمراد المبالغة فى الكثرة وهو المقصود بقول ابن عباس : « لا يهتدى إليه حساب الحساب ولا يُعرف » أى : بغير تقدير .

ولأهل البلايا نصيب أوفر ففى الحديث أنه « تنصب الموازين لأهل الصلاة والصدقة والحج فيؤتون بها أجورهم ولا تنصب لأهل البلايا ، بل يصب عليهم الأجر صباً حتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل » .

---

(١) سورة الزمر من الآية : ٧٤

وإيثار الصابرين على المتقين للإيذان بأنهم حائزون لفضيلة الصبر كحيازتهم لفضيلة التقوى مع ما فيه من زيادة حث على المصابرة والمجاهدة فى تحمل مشاق المهاجرة ومتاعبها واحتمال البلايا فى طاعة الله .

(قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾)

المفردات :

(مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ) أى : من كل ما ينافيه من الشرك والرياء وغير ذلك .

(أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ) أى : أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وأسلم لله ، وآمن به .

(مُخْلِصاً لَّهُ دِينِى) أى : طاعتى وعبادتى .

(فَاعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ) : أمر تهديد وتوبيخ ، أى : ستلقون حتما جزاء كفركم

(قُلْ إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ) عن ابن عباس : ليس من أحد إلا خلق الله له زوجة فى الجنة ، فإذا دخل النار خسر نفسه وأهله .

(أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) أى : الواضح الظاهر .

(لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ)أى : لأولئك الخاسرين طبقات كثيرة من النار فوقهم كهيئة الظلل : جمع ظلة ، وأصلها : السحابة تظل ماتحتها .

(وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ) : وسمى ما تحتهم ظللا لأنها تظل من تحتهم[1] والمراد أن النار محيطة بهم إحاطة تامة من جميع الجوانب .

التفسير

١١ - (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ) :

أمر رسول الله ﷺ ببيان ما أمر به من الإخلاص فى عبادة الله - عز وجل - الذى هو عبارة عما أمر به المؤمنون من التقوى مبالغة فى حثهم على الإتيان بما كلفوه وتمهيدا لما يعقبه مما خوطب به المشركون .

وعدم التصريح بالآمر لتعين أنه الله - تعالى - .

١٢ - (وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ) :

أى : وأمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له لأجل أن أكون مقدم المسلمين فى الدنيا والآخرة . وكذلك كان ﷺ فإنه كان أول من خالف دين آبائه ، وخلع الأصنام وحطمها وأسلم لله وآمن به ، ودعا إلى عبادته ، وكان له إحراز السبق فى الدين بالإخلاص فيه ، وإخلاصه - عليه الصلاة والسلام - أتم من إخلاص كل مخلص ، فلم تكن له صفة الملوك الذين يأمرون بما لا يفعلون .

١٣ - (قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) :

أى : قل يا محمد لمن دعاك بالرجوع إلى دين آبائك ، وذلك أن كفار قريش قالوا له - عليه الصلاة والسلام - : ألا تنظر إلى أبيك وجدك ، وسادات قومك يعبدون اللات والعزى فنزلت

---

(١) أو هو من قبيل المشاكلة .

ردا عليهم . أى : قل إنى أخاف ترك الإخلاص والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك ، أوالميل إلى أى شىء من المعاصى ؛ لأنى أخاف (عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) وهو يوم القيامة ، ووصفه بالعظمة لعظمة ما فيه من الدواهى والأهوال . والمقصود تهديدهم والتعريض لهم بأنه -عليه الصلاة والسلام - مع عظمته لو عصى الله - تعالى - ما أمن العذاب فكيف بهم .

١٤ - (قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِى) :

أى قل لهم : أعبد الله لا غيره -سبحانه- لا استقلالا ولا اشتراكا ، مخلصاً له دينى عن الشرك الظاهر والخفى ، أو مخلصا له دينى بعبادته - سبحانه - لذاته من غير طلب شىء منه - تعالى - كقول رابعة : سبحانك ما عبدتك خوفاً من عقابك ولا رجاء ثوابك .

أمر - عليه الصلاة والسلام - أولا ببيان كونه مأمورا بعبادة الله - تعالى - بإخلاص الدين له . ثم الإخبار بخوفه من العذاب على تقدير عصيانه . ثم الإخبار بامتثاله الأمر على أبلغ وجه وآكده إظهارا لتصلبه ﷺ فى الدين . وحسما لأطماعهم الفارغة فى الرجوع إلى دينهم . وتمهيدا لتهديدهم بقوله - عز وجل - :

١٥ - (فَاعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) :

بدأت الآية بأمر تهديد ووعيد وتوبيخ : (اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ) أى : فاعبدوا ما شئتم أن تعبدوه من دون الله ، وفيه من الدلالة على شدة الغضب عليهم ما لا يخفى كأنهم لما لم ينتهوا عما نهوا عنه أمروا به كى يحل بهم العقاب .

ولكونه أمر تهديد عقبه بقوله : (قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ) : أى : قل لهم أيها الرسول : إن الخاسرين الكاملين فى الخسران الجامعين لوجوهه وأسبابه الذى هو عبارة عن إضاعة ما يهمهم ، وإتلاف مالا بد منه هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم باختيارهم الكفر لهما فأضاعوهما وأتلفوهما يوم القيامة حين يدخلون النار ،حيث عرضوهما للعذاب السرمدى ، وأوقعوهما فى هلكة ما بعدها هلكة ، والمراد بالأهل الأتباع الذين أضلوهم وقد خسروهم كما خسروا أنفسهم ، وقيل المراد بالأهل : من أعده الله - تعالى - لمن

يدخل الجنة من الحور العين أى : خسروا أهليهم الذين يكونون لهم فى الجنة لو آمنوا فبعدم إيمانهم ذهبوا عنهم ذهاباً لا إياب بعده .

أخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد : عن قتادة قال : ليس أحد إلا قد أعد الله ـ تعالى . له أهلا فى الجنة إن أطاعه .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس أنه قال فى الآية : خسروا أهليهم من أهل الجنة وكانوا قد أُعدوا لهم لو عملوا بطاعة الله .

(أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) : جملة مستأنفة . وتصديرها بحرف التنبيه والإشارة تنبيه إلى بعد منزلة المشار إليه فى الشر . وأنه لعظمه بمنزلة المحسوس ، وفى توسيط ضمير الفصل وتعريف الخسران ووصفه بالمبين من الدلالة على كمال هوله وفظاعته ، وأنه لا خسران وراءه ما لا يخفى . حيث استبدلوا بالجنة نارا وبالدرجات دركات .

١٦ ـ (لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَٰعِبَادِ فَاتَّقُونِ) :

الآية : بيان لخسرانهم بعد تهويله بطريق الإبهام . أى : لهم من فوقهم أطباق بعضها فوق بعض من النار ، ومن تحتهم أطباق كثيرة بعضها تحت بعض وتسميتها ظللا للمشاركة والمراد : أن النار محيطة بهم إحاطة تامة من جميع الجهات ، والتعبير جار بظلل مجرى التهكم ، ولذلك قيل لهم : من فوقهم ظلل ... إلخ .

(ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ) أى : ذلك العذاب الفظيع الذى يخوف الله به عباده ويحذرهم إياه بآيات الوعيد ليبتعدوا عما يكون سببا فى إيقاعهم فيه . ثم وعظهم ـ تعالى ـ عظة بالغة منطوية على غاية اللطف والرحمة فقال مناديا لهم : (يَٰعِبَادِ فَاتَّقُونِ) ولا تتعرضوا لما يوجب سخطى عليكم ، وغضبى منكم حتى تتحقق عبوديتكم لى التى هى عنوان الرضا عنكم ، والتشريف لكم ، والمراد فى الآية المؤمنون لأنهم المنتفعون بالتخويف ، وعممه آخرون فى المؤمن والكافر . وقيل : هو خاص بالكفار .

(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾)

المفردات :

(اجْتَنَبُواْ الطَّاغُوتَ) الطاغوت : هو البالغ أقصى غاية الطغيان ، ويطلق على الواحد والجمع ، والمراد به : الشيطان . وقال الضحاك والسدى : هو الأوثان ، ويجمع الطاغوت على طواغيت وطواغ .

(وَأَنَابُوٓاْ إِلَى اللهِ) أى : رجعوا إليه وتابوا .

(لَهُمُ الْبُشْرَىٰ) : الثواب على ألسنة الرسل أو الملائكة عند حضور الموت ،وحين يحشرون والبشرى : اسم لما يعطاه المبشَّر .

(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَــوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) : هم الذين يسمعون الحسن والقبيح فيتحدثون بالحسن ، ويكفون عن القبيح فلا يتحدثون به .

(وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ الْأَلْبَابِ) : أصحاب العقول السليمة .

التفسير

١٧- (وَالَّذِينَ اجْتَنَبُواْ الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ) :

قال ابن إسحاق : نزلت فى عثمان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص وطلحة ، والزبير – رضى الله عنهم – سألوا أبا بكر – رضى الله عنه – فأخبرهم بإيمانه وذكرهم بالله فآمنوا . وقيل : نزلت فى زيد بن عمرو بن نفيل ، وأبى ذر ، وغيرهما ممن وحدوا الله –تعالى– قبل مبعث النبى ﷺ. والمراد بالطاغوت هنا : ما يعبد من دون الله . وقال الزمخشرى : لا يطلق لفظ الطاغوت فى هذه السورة على غير الشيطان ، وكل

من عبد غير الله - تعالى - فهو يعبد الطاغوت ، أى :الشيطان ؛ لأن عبادة غير الله عبادة له فهو الآمر بها ، والداعى إليها .

والمعنى : والذين باعدوا أنفسهم ،ونزهوها عن عبادة الطاغوت البالغ الغاية فى الطغيان .

(وَ أَنَابُوٓاْ إِلَى اللهِ) أى : أقبلوا إليه إقبالا كليا معرضين عما سواه (لَهُمُ الْبُشْرَىٰ) بالثواب ، وحسن العاقبة عند حضور الموت ،وحين يحشرون (فَبَشِّرْ عِبَادِ) أى : فبشر - أيها الرسول - عبادى الذين هم أهل للبشرى بالثواب ، وهم المعنيون بقوله - سبحانه - :

١٨ - (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَـٰٓئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وأُولَـٰٓئِكَ هُمْ أُولُواْ الْأَلْبَابِ) :

أى : هم الموصوفون باجتناب الطاغوت والإنابة إلى الله بأعيانهم . على أن مدار اتصافهم بالوصفين الجليلين كونهم نُقَّاداً فى الدين يميزون بين الحسن والأحسن ، والفاضل والأفضل ، فإذا اعترضهم أمران حرصوا على ماهو أقرب عند الله وأكثر ثوابا .

وقيل : هم الذين يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها نحو القصاص والعفو والانتصار والإغضاء . والإبداء والإخفاء لقوله تعالى : (وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ)[1] (وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ)[2].

وقيل : يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن ، إلى غير ذلك مما قيل فى : القرطبى وغيره .

(أُولَـٰٓئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ) لدينه ولما يرضاه ، والإشارة إليهم باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الجليلة (وَأُولَـٰٓئِكَ هُمْ أُولُواْ الْأَلْبَابِ) أى : وهؤلاء هم أصحاب العقول السليمة عن منازعة الهوى ،ومعارضة الوهم لاغيرهم . وفيه دلالة على أن الهداية تحصل بفعل الله ، وقبول النفس لها .

---

(١) سورة البقرة من الآية : ٢٣٧

(٢) سورة البقرة من الآية : ٢٧١

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(كَلِمَةُ الْعَذَابِ) : إشارة إلى نحو قوله – تعالى – : (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ)[1] وقوله تعالى : (لَهُمْ غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ) أى : طبقات قد أعد بناؤها قبل يوم القيامة .

(تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) أى : مبنية على صورة يتأتى معها جرى الأنهار من تحتها لتكمل المتعة بها .

التفسير

١٩ – (أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى النَّارِ) :

بيان لأحوال أضداد السابقين على طريق الإجمال . وهؤلاء هم عبدة الطاغوت ومتبعو كهنتها . والآية كما قيل : نزلت فى أبى جهل وأضرابه وكان النبى ﷺ يحرص كل الحرص على إيمانهم ، وأعلمه الله أن من سبقت له الشقاوة ، وحق عليه القضاء بأنه من أهل النار ، لايستطيع ﷺ أن ينقذه منها ويجعله مؤمنا .

والمعنى : أأنت مالك أمر الناس فمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه ؟ أى : لايستطيع أحد أن ينقذ من أضله الله ، وسبق فى علمه أنه من أهل النار ، لسوء اختياره ؛ لأنه لايقدر على الإنقاذ إلا المالك القادر ، والهمزة للإنكار . أى : النفى .

(١) سورة ص الآية : ٨٥

والهمزة الثانية فى الآية هى الأولى كررت مع الجزاء لتوكيد معنى الإنكار . ثم وضع من فى النار موضع ضميرهم لمزيد تشديد الإنكار والاستبعاد ، والتنبيه على أن المحكوم عليه بالعذاب بمنزلة الواقع فى النار ، وقد جعل اجتهاده - عليه الصلاة والسلام - فى دعائهم إلى الإيمان وحرصه على إيمانهم - جعل - سعيا فى إنقاذهم من النار ، والآية تسلية للنبى ﷺ عن حزنه على كفرهم وإصرارهم عليه .

٢٠ - (لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ) :

لما بيَّن - سبحانه - أن للكفار ظللا من النار فوقهم ، ومن تحتهم ، بيَّن أن للمتقين غرفا فوقها غرف ، لأن الجنة درجات يعلو بعضها بعضا . ولفظ (لكن) للانتقال من قصة إلى قصة أخرى مخالفة للأولى وليست للاستدراك : ذكر ذلك القرطبي .

والمعنى : أن الذين اتقوا ربهم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وهم الذين خوطبوا بقوله تعالى : (يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ) ووصفوا بما عدد من الصفات الفاضلة ، وبأن لهم درجات عالية فى جنات النعيم ، بمقابلة ما للكفرة من دركات سافلة فى الجحيم ، أى : لهم علالى بعضها فوق بعض مبنيات محكمات عاليات . وحسبك إشارة إلى رفعة شأنها أن الله - جل شأنه - بانيها ، وماذا يقال فى بناء هو من صنع مبدع السموات والأرض دون غيره ، تلك الغرف تجرى من تحتها الأنهار فتزيدها رونقا وبهاء من غير تفاوت فى العلو والسفل . وهى مهيأة ومعدة لهم ، قد فرغ من أمرها كما هو ظاهر الوصف لا أنها تبنى يوم القيامة . وفى ذلك من تعظيم المتقين وعلو شأنهم مافيه .

روى الإمام أحمد بسنده : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا ، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا أَعَدَّهَا اللَّهُ لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ وَأَلَانَ الْكَلَامَ ، وَصَلَّى وَالنَّاسُ نِيَامٌ » .

(وَعْدَ اللَّهِ) مصدر مؤكد لقوله تعالى : (لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ . . . إلخ) فإنه وعد وأى وعد (لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ) مع الفريقين لاستحالته عليه - سبحانه - لما فى خلفه من النقص المستحيل عليه - عز وجل - .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(اللهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ) المراد بها : السحاب .

(فَسَلَكَهُ يَنَٰبِيعَ) أى : فأدخله فى عيون وأنهار من الأرض . يقال : سلكت الشىء فى الشىء أنفذته . والينبوع : عين الأرض ومجرى الماء ، جمعه ينابيع ، وفعله من باب قعد أو نفع . والمراد : أن الماء بعد هبوطه فى الأرض يخرج من العيون والأنهار .

(ثُمَّ يَهِيجُ) أى : يَصْفَرُّ . يقال : هاج البقل يهيج : اصفَرَّ . ا هـ : مصباح .

(ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا) أى : متكسرا ، يقال : حطم حطما من باب تعب فهو حَطِم إذا تكسر . ا هـ : مصباح .

(أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ) الشرح فى الأصل : البسط والمد للحم ونحوه ، ويكنى به عن التوسيع . قال ابن عباس : وسَّع صدره للإسلام حتى ثبت فيه . (فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ) أى : فهو على هدى منه ـ سبحانه ـ .

(فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُمْ) قال المبرد : يقال : قسا القلب إذا صلب . وقلب قاس . أى : صلب لايرق ولا يلين .

(مِن ذِكْرِ اللهِ) أى : من أجل ذكره ـ سبحانه ـ الذى حقه أن تلين منه القلوب .

التفسير

٢١ -(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) :

الآية استئناف وارد : إما لتمثيل الحياة الدنيا فى سرعة زوالها ، وقرب اضمحلالها بما ذكر من أحوال الزرع تحذيرا من الاغترار بها ، وتنفيرا من التشبث بأذيالها ، بعد أن وصفت الجنة بما يرغب فيها ، ويشوق إليها ، وإما للاستشهاد على تحقق الموعود من الأنهار الجارية تحت الغرف بما يشاهد من إنزال الماء من السماء ، وما يترتب عليه من آثار قدرته - سبحانه - وآيات حكمته ورحمته .

والمعنى : ألم تر أيها المخاطب أن الله أنزل بعظيم قدرته من السحاب ماء المطر أنزله بأسباب أرادها الله. فإن تصعيد الأبخرة من البحار بسبب حرارة الشمس وتكوين الغيوم ونحو ذلك من الأسباب الجوية التى أنشأها الله - جل وعلا - لإنزال المطر على الجبال والسهول والأودية ،وسائر الأنحاء، أنزله - سبحانه - فأدخله فى مسارب وينابيع فى الأرض كالعروق فى الأجساد (ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ) ثم يخرج الله بالمطر (زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ) أى : أنواعه وأصنافه من بر وشعير وغيرهما ، أو مختلفا ألوانه المُدرَكَةُ بالبصر من خضرة وحمرة وغيرهما ، ويشمل الزرع المقتات للبشر وغيره (ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا) أى : يتم جفافه بعد أن انتقل فى أطواره نموا ونضارة فتراه بعد خضرته مصفرا (ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا) أى : فتاتا متكسرا .

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) إن فيما ذكر تفصيلا من إنزال الماء ، وإخراج الزرع لتذكيرا عظيما لأصحاب العقول الخالصة من شوائب الخلل ، وتنبيهًا لهم على حقيقة الحال ، يتذكرون بذلك أن حال الحياة الدنيا فى سرعة التقضى والانصرام ، كما يشاهدونه من حال الحطام كل عام ، فلا يغترون ببهجتها ولايفتنون

بفتنتها ، أو يجزمون بأن من قدر على إنزال الماء من السماء وإجرائه فى ينابيع الأرض قادر على إجراء الأنهار من تحت الغرف فى الجنة .

٢٢ - (أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللهِ أُوْلَٰئِكَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

استئناف جار مجرى التعليل لما قبله من تخصيص الذكرى بأولى الألباب .

فالصدر محل للقلب الذى هو منبع الروح ، وانشراحه مستدع لاتساع القلب واستضاءته بنور الله .

والمعنى : أَكُلٌّ الناس سواء ؟ فمن شرح الله صدره واهتدى . أى : خلقه متسع الصدر مستعدا للإسلام فبقى على الفطرة الأصلية ،ولم يتغير بالعوارض السيئة المكتسبة (فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ) أى : فهو بموجب ذلك مستقر على نور عظيم من ربه ، وهو اللطف الإلٰهى الفائض عليه عند مشاهدة الآيات الكونية والتنزيلية والتوفيق بها إلى الاهتداء إلى الحق . وسئل رسول الله عن الشرح فقال : (إذا دخلَ النورُ القلبَ انشرحَ وانفتحَ . فقيل : هل لذلك من علامة ؟ قال : نعم ، الإنابةُ إلَى دارِ الخُلودِ ، والتجافِى عن دارِ الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت) .

أفمن شرح الله صدره للإسلام كمن قسا قلبه وحرج صدره بسبب تبديل فطرة الله بسوء اختياره ، وقد استولت عليه ظلمات الغى والضلالة فأعرض عن الآيات .بالكلية حتى لايتذكر بها ولا يغتنمها .

(فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللهِ) أى : من أجل ذكر الله الذى حقه أن تلين منه القلوب بمعنى : أنهم إذا ذكر الله عندهم أو آياته - عز وجل - اشمأزوا من ذلك وزادت قلوبهم قساوة كقوله : (فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ) وكانوا أهلا للويل وسوء المصير .

وأسند الشرح إلى الله - تعالى - إيذانا بأنه على أتم الوجوه ؛ لأنه فعل قادر حكيم ، وقابله بالقساوة مع أن مقتضى المقابلة أن يقابل بالضيق ؛ لأن القساوة كما فى الصخرة الصماء تقتضى عدم قبول شىء بخلاف الضيق فإنه يشعر بقبول شىء قليل ،وذلك غير مقصود .

وإسناد القساوة إلى القلوب دون الصدور للتنصيص على فساد هذا العضو الذى إذا فسد فسد الجسد كله .

(أُوْلَـٰئِكَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) أى: أولئك البعداء الموصوفون بماذكر من قساوة القلوب فى بعد عن الحق ظاهر لايخفى كونه ضلالا على أحد .

والآية قيل : نزلت فى على وحمزة – رضى الله عنهما – وأبى لهب وابنه . وقيل : نزلت فى عمار بن ياسر ، وأبى جهل وذويه ، والمراد منها العموم فى كل من شرح الله صدره بخلق الإيمان فيه ، وكل من زادته الآيات رجسا وقساوة ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب .

(ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾)

المفردات :

(أَحْسَنَ الْحَدِيثِ) المراد به : القرآن الكريم .

(مُتَشَـٰبِهًا) : يشبه بعضه بعضا فى الصدق والبيان والوعظ والحكمة وغير ذلك .

(مَّثَانِىَ) : جمع مُثَنًّى[1] بمعنى مُردَّد ومكرَّر من التكرير والإعادة لما كرر من قصصه وأنبائه وأحكامه ويثنى للتلاوة فلا يمل .

(تَقْشَعِرُّ)أى : تضطرب وتتحرك بالخوف مما فيه من الوعيد (ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ) المراد بذكر الله : الإسلام وآية الرحمة ونحو ذلك .

---

(١) بضم الميم وتشديد النون مفتوحا ، وهو جمع له على غير قياس ، وقياسه مثنيات .

التفسير

٢٣ - (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) :

عن ابن عباس أن قوما من الصحابة قالوا : يارسول الله ، حدثنا بأحاديث حِسَان ، وبأخبار الدهر فنزلت ، وعن ابن مسعود : أن الصحابة ملُّوا ملَّة فقالوا له - عليه الصلاة والسلام - : حدثنا فنزلت إرشادا لهم إلى مايزيل ملَلَهُم وهو تلاوة القرآن الكريم واستماعه منه ﷺ غضا نضيرا .

والمعنى : أن الله نَزَّل أحسن الحديث ، وهو القرآن العظيم - نزله كتابًا متشابهاً - ، يشبه بعضه بعضا فى الصدق والحق والوعظ والحكمة والإعجاز واستتباع منافع العباد فى المعاش والمعاد وجعله مثانى [1] أى : مرددًا ومكرّرا وكرر من قصصه وأنبائه وأحكامه ، وأوامره ونواهيه ، ووعده ووعيده ، ومواعظه .

وقيل : هو مثانى لأنه يثنى فى التلاوة فلا يمل ، ووقوع مثانى وهو جمع صفة لكتاب وهو مفرد باعتبار تفاصيله ، وتفاصيل الشيء هى جملته ألا تراك تقول : إن القرآن سور وآيات ، وأسباع وأخماس . فكذلك تقول : هو أحكام ومواعظ وأقاصيص (تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) استئناف مسوق لبيان آثاره الظاهرة فى سامعيه بعد بيان أوصافه فى نفسه ، ولتقرير كونه أحسن الحديث ، ومن هيبته تقشعر منه جلود الذين يخشون الله حقَّ خشيته ، بمعنى تتقبض تقبضا شديدا . والمراد : إما بيان خشيتهم بطريق التمثيل والتصوير ، أو بيان حصول تلك الحالة وعروضها بطريق التحقيق .

والمعنى : أنهم إذا سمعوا القرآن وقوارع آيات وعيده أصابتهم رهبة وخشية تقشعر منها جلودهم ، وإذا ذكروا رحمة الله - تعالى - تبدلت خشيتهم رجاء ، ورهبتهم رغبة

---

(١) جمع مثنى بالفتح مخففا من التثنية بمعنى التكرير والإعادة كما فى قوله تعالى : «فارجع البصر كرتين» . بمعنى كرة بعد كرة . وهذا رأى آخر غير الذى سبق .

وذلك قوله تعالى : (ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ) أى : تلين ساكنة مطمئنة إلى ذكر رحمته - تعالى - وإنما لم يصرح بها لأنها أول مايخطر بالبال عند ذكره - تعالى- لأصالته كما يرشد إليه خبر (سبقت رحمتى غضبى) وليس فى الآية أكثر من نعت أوليائه باقشعرار الجلود من القرآن ثم سكونهم إلى ذكر رحمته - عز وجل - ولم ينعتهم الله بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما هذا فى أهل البدع وهو من الشيطان .

عن أسماء بنت أبى بكر الصديق - رضى الله عنهما - قالت : (كان أصحاب النبى ﷺ إذا قرىء عليهم القرآن كما نعتهم الله تدمع أعينهم ، وتقشعر جلودهم ، قيل لها : فإن أناسا اليوم إذا قرىء القرآن عليهم خرَّ أحدهم مغشيا عليه ، فقالت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) .

وقال سعيد بن عبد الرحمن الجمحى : مر ابن عمر برجل من أهل القرآن ساقط ، فقال : مابال هذا ؟ قالوا : إنه إذا قرىء عليه القرآن وسمع ذكر الله سقط . فقال ابن عمر : إنا لنخشى الله وما نسقط . ثم قال : إن الشيطان يدخل فى جوف أحدهم .وقال ابن سيرين : بيننا وبين هؤلاء الذين يصرعون عند قراءة القرآن أن يجعل أحدهم على حائط باسطا رجليه ثم يقرأ عليه القرآن كله فإن رمى بنفسه فهو صادق .

فهذه أخبار ناعية على بعض المتصوفة صعقتهم وضرب رءوسهم بالأرض عند سماع القرآن .

(ذَٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِى بِهِ مَن يَشَآءُ) أى : ذلك الكتاب الذى شرحت أحواله هو هدى الله الذى يهدى به من يشاء من عباده ، الذين علم منهم اختيار الاهتداء بتأمله ، والاتعاظ بما فى تضاعيفه من شواهد الحقية ، ودلائل كونه من عند الله - تعالى - .

(وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) أى : ومن يخلق - سبحانه - فيه الضلال لإعراضه عما يرشده إلى الحق بسوء اختياره ، فليس له من أحد يهديه إلى الحق ليخلصه من ورطة الضلال .

وقيل : الإشارة فى قوله : (ذَٰلِكَ هُدَى اللهِ) إلى المذكور من الاقشعرار واللين أى : ذلك الذى ذكر من الخشية والرجاء أثر هداه - تعالى - يهدى بذلك الأثر من يشاء من عباده ، ومن لم يؤثر فيه الهدى لقسوة قلبه ، وإصراره على فجوره ، فما له من هاد يؤثر فيه حتى يهتدى .

(أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوٓءَ الْعَذَابِ) : وهو الذى يرمى به مكتوفًا فى النار ، فيتقى بوجهه العذاب الشديد ؛ لأنه أول شيء تمسه النار .

(وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ) أى : وتقول الخزنة للكفار : ذوقوا جزاء كسبكم من المعاصى وهو العذاب والنكال .

(فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ) أى : فأصابهم العذاب الدنيوى .

(مِنْ حَيْثُ لَايَشْعُرُونَ) أى : من الجهة التى لايخطر ببالهم إتيان الشر منها .

(فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الْخِزْىَ) يقال لكل مانال الجارحة : قد ذاقته. أى : وصل إليها كما تصل الحلاوة والمرارة إلى الذائق لهما . قال المبرد : والخِزْى من المكروه والخَزَاية من الاستحياء .

(لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) أى : لو كان من شأنهم أن يعلموا شيئًا لعلموا ذلك .

التفسير

٢٤ - (أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِ سُوٓءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ) :

استئناف جارٍ مجرى التعليل لما قبله من تباين حال المهتدى والضال. وقد نزلت - كما قيل - فى أبى جهل .

والمعنى : أَكُلُّ الناس سواء ؟ فمن شأنه أن يتقى بوجهه الذى هو أشرف أعضائه - يتقى - به - العذاب السيء الشديد . كمن هو آمِن لا يعتريه مكروه ولا يحتاج إلى اتقائه بوجهه ، فالوجه على حقيقته .

ويشير هذا إلى أن الإنسان إذا لقى مكروهًا من المخاوف استقبله بيده وطلب أن يقى بها وجهه ، لأنه أعز أعضائه عليه ، والذى يلقى فى النار يلقى مغلولة يداه إلى عنقه ، فلا يتهيأُ له أن يتقى النار إلَّا بوجهه الذى كان يتقى المخاوف بغيره وقاية له ومحاماة عليه. قال عطاء ، وابن زيد : يرمى به مكتوفًا فى النار ، فأَول شيء تمس منه النار وجهه ، وقال مجاهد : يجر على وجهه فى النار ، وجوز أن يراد من الوجه الجسم كله .

ويقال للظالمين من جهة الخزنة : ذوقوا وبال ما كنتم تكسبونه فى الدنيا من الكفر والمعاصى ، ووضع المظهر فى مكان المضمر - فقيل للظالمين ، ولم يقل لهم - لتسجيل الظلم عليهم والإشعار بعلية الأمر فى قوله تعالى : (ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ) وصيغة الماضى مع أن قول الخزنة مستقبل للدلالة على تحقق الوقوع .

٢٥ - (كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) :

استئناف مسوق لبيان ما أصاب بعض الكفرة من العذاب الدنيوى إثر بيان ما يصيب الجميع من العذاب الأُخروى .

والمعنى : كذب الذين من قبل قريش من الأُمم السابقة عليهم ، فأَتاهم العذاب المقدر لكل أُمة منهم من الجهة التى لا يحتسبون ولا يدور بخلدهم إتيان الشر منها ؛ لأَن ذلك أقسى على النفس وأَشد إيلامًا لها .

٢٦ - (فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) :

أى : فأذاقهم الله الذل والصغار بمعنى أنهما وصلا إليهم كما تصل الحلاوة والمرارة إلى الذائق لهما ، ولعذاب الآخرة المعد لهم أكبر وأنكى مما أصابهم فى الدنيا لشدته وسرمديته.

(لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) أى : لو كان من شأنهم أن يعلموا شيئًا لعلموا ذلك واعتبروا به.

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾)

المفردات :

(مِن كُلِّ مَثَلٍ) : يحتاج إليه الناظر فى أمور دينه .

(غَيْرَ ذِي عِوَجٍ)أى : غير مختلف وهو قول ابن عباس . والعوج -بكسر العين وفتحها- مصدر عوج كتعب . قال ابن الأثير : إن مكسور العين مختص بما ليس مرئيًّا كالرأى ، والقول . والمفتوح مختص بما هو مرئى كالأجساد . وعن ابن السكيت : أن المكسور أعم من المفتوح ، واختار المرزوقى أنه لافرق بينهما .

التفسير

٢٧ - (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) :

أى : ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن الرفيع الشأن من كل مثل يحتاجون إليه ، للنظر فى شئون دينهم ، بمعنى بينا لهم ذلك بضرب الأمثال كى يتذكروا بها ويتعظوا .

٢٨ - (قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) :

أى : وأنزلناه قرآنًا عربيًّا سلم مبناه ومعناه لا اختلال فيه بوجه من الوجوه ولا انحراف.

ونفى مصاحبة العوج عنه يقتضى نفى اتصافه به بالطريق الأولى فهو أبلغ من (غَيْرِ عِوَجٍ)

ولما كان العوج (بالكسر) يقال فيما يدرك بالعقل والبصيرة والعوج (بالفتح) يقال فيما يدرك بالحس، عبر بالأول ليدل على أنه أبلغ إلى حد لا يدرك العقل فيه عوجًا فضلا عن الحس.

(لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ): الكفر والكذب بترك الاختلاق عليه والشك فيه.

(ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(مُتَشَاكِسُونَ) أى: شرسو الطباع.

(وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ) أى: خالصًا لسيد واحد.

(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ): الحق فيتبعونه.

التفسير

٢٩ - (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ):

هذا مثَلٌ من الأمثلة القرآنية بعد بيان أن الحكمة فى ضرب الأمثال هو التذكر والاتعاظ بها، وتحصيل التقوى. والمراد هنا بضرب المثل تشبيه حالة عجيبة بأُخرى مثلها.

والمعنى: ضرب الله للمشرك الذى يعبد آلهة كثيرة - ضَرَبَ لَهُ - مثلًا عبدًا مملوكًا لجماعة

متشاحنين يتجاذبونه ويتعاورونه لا يلقاه رجل منهم إلَّا جرَّه واستخدمه ، فهو يلقى منهم العنَاء والنصب والتعب العظيم ، وهو مع ذلك كله لا يُرضى واحدًا منهم بخدمته ، ولا يدرى على أيهم يعتمد فى حاجاته ولا أيهم يرضى بخدمته ، فهمُّه شعاع ، وقلبه أوزاع .

وضرب لمن يعبد الله وحده مثلا رجلًا خالصًا لفرد واحد ، وليس لغيره سبيل عليه ، وذلك الفرد يَعُولُهُ ويعرف له صدق بلائه ، فهو فى راحة من الحيرة وتوزع القلب .

(هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا) أى : هل تستوى صفتاهما وحالاهما ، وهو إنكار واستبعاد لاستوائهما ، ونفى له على أبعد وجه وآكده . وإيذان بأن ذلك من الجلاء والظهور بحيث لا يقدر أحد أن يتفوه باستوائهما ، أو يتلعثم فى الحكم بتباينهما ، كذلك لا يستوى المشرك الذى يعبد مع الله آلهة ، والمؤمن الذى لا يعبد إلَّا الله وحده لا شريك له .

والسر فى إبهام الفاضل والمفضول الإشارة إلى كمال الظهور عند من له أدنى شعور .

(الْحَمْدُ لِلَّهِ) : تقرير لما قبله من نفى الاستواء بين المثلين ، وتنبيه للموحدين على أن مَا لَهُم من المزية بتوفيق الله ــ تعالى ــ وأنها نعمة جليلة تقتضى الدوام على حمده وعبادته أو الحمد لله على إقامة الحجة عليهم .

(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) : إضراب وانتقال من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور إلى بيان أن أكثر الناس وهم المشركون لا يعلمون ذلك مع كمال ظهوره فيقعون فى ورطة الشرك والضلال .

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾)

المفردات :

(إِنَّكَ مَيِّتٌ) مع التشديد : من لم يمت وسيموت ، ومع التسكين : من فارقته الروح .

(تَخْتَصِمُونَ) أى : يتخاصم فيه الكافر والمؤمن، والظالم والمظلوم ، قاله ابن عباس وغيره .

يقال : اختصم القوم : خاصم بعضهم بعضًا . اهـ : مصباح .

التفسير

٣٠ - (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ) :

تمهيد لما يعقبه من الاختصام يوم القيامة ، وهو خطاب للنبى - صلَّى الله عليه وسلم - أخبره فيه - سبحانه - بموته . ويدخل معه مؤمنو أُمته . والمقصود من الضمير فى «إنهم ميتون» الكفار . وقد احتمل خطابه كما قال القرطبى خمسة أوجه :

أحدها : أن يكون ذلك تحذيرًا من الآخرة .

الثانى : أنه ذكره حثًّا على العمل .

الثالث : أنه توطئة للموت .

الرابع : لئلا يختلفوا فى موته كما اختلفت الأُمم فى غيره حتى أن عمر - رضى الله عنه - لما أنكر موته احتج أبو بكر - رضى الله عنه - بهذه الآية مع قوله : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ) . . . الآية .

الخامس : ليعلمه أن الله ـ تعالى ـ سوى فيه بين خلقه مع تفاضلهم فى غيره لتكثر فيه السلوة وتقل فيه الحسرة .

وفى البحر : لما لم يلتفتوا إلى الحق ولم ينتفعوا بضرب المثل أخبر ـ سبحانه ـ بأن مصير الجميع بالموت إلى الله ـ تعالى ـ وأنهم يختصمون يوم القيامة بين يديه وهو ـ عز وجل ـ الحكم العدل فيميز هناك المحق من المبطل .

وقيل : كانوا يتربصون موت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبروا بأنهم جميعًا سواء بصدد الموت ، فلا معنى للتربص وشماتة الفانى بالفانى .

وتأكيد الجملة فى (إِنَّهُم مَّيِّتُونَ) للإشعار بأنهم فى غفلة عظيمة عن الموت ، وتأكيد الأولى دفعًا لاستبعاد موته ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

٣١ ـ (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) :

يعنى تخاصم الكافر والمؤمن ، والظالم والمظلوم قاله : ابن عباس وغيره .

وقيل :إن الخصومة تبلغ يوم القيامة إلى أن يحاج الروح الجسد ، . أى : ثم إنك وإياهم (يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ) أى : عند مالك أمركم (تَخْتَصِمُونَ) فتحتج عليهم بأنك بلغت ما أرسلت به من الأحكام والمواعظ التى من جملتها ما فى تضاعيف هذه الآيات فكذبوا ولجوا فى المكابرة والعناد معتذرين بما لا طائل تحته ، تقول الأتباع : أطعنا سادتنا وكبراءنا ، ويقول السادة : أغوتنا الشياطين وآباؤنا الأقدمون وغلبت علينا شقوتنا .

وقال جَمْعٌ : المــراد بذلك الاختصام العام فيما جرى فى الدنيا بين الأَنام لا خصوص الاختصام بينه ــ عليه الصلاة والسلام ــ وبين الكفرة الطغام .

أخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن عساكر : عن إبراهيم النخعى قال : نزلت هذه الآية (إِنَّكَ مَيِّتٌ . . .) إلخ ، فقالوا : وما خصومتنا ونحن إخوان ؟ فلما قتل عثمان بن عفان قالوا : هذه خصومة ما بيننا .

وقال الزبير : لما نزلت هذه الآية قلنا : يا رسول الله أيكرر علينا ما كان بيننا فى الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال : نعم ، ليكررن عليكم حتى يؤدى إلى كل ذى حق حقه . فقال الزبير : والله إن الأَمر لشديد ، وقال ابن عمر : لقد عشنا برهة من دهرنا ونحن نرى هذه الآية نزلت فينا وفى أهل الكتابين (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) وكيف نختصم ونبينا واحد وديننا واحد حتى رأيت بعضًا يضرب وجوه بعض بالسيف فعرفت أنها فينا نزلت .

وقال أبو سعيد الخدرى : كنا نقول : ربنا واحد ، وديننا واحد ، ونبينا واحد ،فما هذه الخصومة ؟ فلما كان يوم « صفين » وشد بعضنا على بعض بالسيوف . قلنا : نعم هو هذا .

وفى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « من كانت له مظلمة من عرضه أو شىء فليتحلله منه اليوم قبل أَلَّا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فَحُمِل عليه ثم طرح فى النار » .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/١٩٨٦

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٦٤٨٨ — ١٩٨٦ — ٢٥٠٠٤